الهيئة العامة لقصور الثقافة



بين التاريخ والفولكلور



تأليف

د. قاسم عبده قاسم







مكتبة
الدراسات الشعبية

بين التاريخ والفولكلور

تأليف
د. قاسم عبده قاسم

يناير | ١٩٨٧

الطبعة الأولى
سنة ١٩٩٣
عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

* موتيفة الوسط :
تفصيل من "الزير سالم
يقاتل الدساس"
للفنان سعد كامل

* تصميم الغلاف :
للفنان محمد بغدادى

مكتبة الدراسات الشعبية
شهرية

المراسلات
باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى
القصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١

إهداء

الى الصديق الدكتور أحمد مرسى
الذى أغرانى عشقه بالموروث الشعبى

قاسم

هذا الكتاب

الأسطورة والتاريخ والقيمة

ثمة علاقة حميمة جدا بين التاريخ والفولكلور . وقبل أن يتحول التاريخ إلى علم يوثق الأحداث والشخصيات ويحلل الدوافع والأسباب ويستخلص العبر والنتائج كانت الأسطورة تلعب دورا شبيها بهذا، وكانت متسقة تمام الاتساق مع الوجدان الإنساني في مراحل الطفولة العقلانية . ذلك أن الإنسان فيما قبل التاريخ كان يتعامل مع الكون وظواهره ومع الحياة ووقائعها بوجدانه أساسا، بعقله الغريزي الخادم للجسد . وحينما قوي العقل المكتسب على العقل الغريزي نشأ العلم في حضن الفلسفة، وتولد عن العلم النظري العلم التجريبي ومنه نشأت التقنيات الحديثة القادرة على فرز الركام واستنباط الحقائق في الزمان المندثر .

ومع ذلك لم ينفصل التاريخ عن الأسطورة، بقيت «الحدوتة»

قاسما مشتركا بينهما وهى بنت الأسطورة، كما صارت الأسطورة مادة للمؤرخ – العقل المفرد – يستعين بها على فهم وجدان الجماعة. وإذا كانت الأسطورة فيما مضى وسيلة فهم وتفسير لكل ما غمض على الإنسان من ظواهر الكون، فإن علم التاريخ هو الآخر وسيلة فهم وتفسير لوقائع الحياة وحركة الشعوب.

وبما أننى – شخصيا – ابن للتراث الشعبى، تربيت ذهنيا ووجدانيا على الملاحم والسير الشعبية: عنترة والهلالية وذات الهمة وفيروز شاه وحمزة البهلوان وسيف ابن ذى يزن والظاهر بيبرس وكتاب ألف ليلة وليلة وما إلى ذلك، ثم أصبحت فى صباى أسيراً لمؤرخى المدرسة المصرية فى التاريخ العربى من أمثال ابن عبد الحكم والقضاعى وابن تغرى بردى وابن إياس والمقريزى والقلقشندى والجبرتى وغيرهم، فإننى على قدر افتتانى بهذين المصدرين الكبيرين المهمين – تمنيت لو أن مؤرخا معاصراً، أو أحد علماء التاريخ يقوم بدراسة ما ورد فيهما – هذين المصدرين – من أساطير رسخها وجدان الجماعة وكرّس لها ووصل ببعضها الى مستوى من البناء الفنى يجبر العقل المعاصر على أن يخر ساجداً أمامها، ويفرض عليه الايمان بها والتعامل معها بالتزام شديد إكراما للقيمة الفكرية التى تحتويها

الأسطورة. إلا أن ركاما من الأساطير - يطيب لى تسميتها بالأساطير الإعلامية - تسلل الى هذين المصدرين بصورة متضخمة حتى بات العمل الفنى أو التاريخى فى بعض الأحيان مجرد إطار لبث هذه الأساطير الإعلامية . وهى ليست إعلامية فوقية كإعلامنا المعاصر، انما هى إعلامية شعبية في معظمها، وصحيح أن رجال السلطات الحاكمة كان لهم - بأسلوب أو بآخر - بعض النفوذ على عقلية رواة السير الشعبية وعلي المؤرخين، تكريسا لحاكم بعينه أو قائد بعينه أو فترة تاريخية بعينها، إلا أن نسبة كبيرة جدا من الجانب الإعلامى فى ذلك الركام من الأساطير كان شعبيا صرفا خالصا من تأثير أى نفوذ فوقي أو أى توجيه، انما تكريسا لمبدأ أخلاقى أو قيمة اجتماعية أو بطولية أو دينية أو قبلية، حتي وإن كانت بغير بناء فني عال. وكانت هذه القيم هي الأساس فى رواج السير الشعبية والحوليات التاريخية بدرجة أقل. فنحن نعشق حمزة البهلوان - أو حمزة العرب - لبطولاته دفاعا عن القومية العربية في صراعها مع القومية الفارسية وانتصاره للقومية العربية، ونعشق أكثر شخصية عمر الجيار - أخيه فى التبنى - لقدراته الخارقة فى عملية التخابر والتجسس والتخفى، انتصارا لقيم الوفاء والاخلاق والعزة والسؤدد والشهامة والايثار والافتداء

والتضحية.. الخ. والعقل المعاصر يجد متعة فى أسطورة عنترة بن شداد ربما أكثر من شخصية عنترة نفسه، لأن هذه الأسطورة بأحداثها ووقائعها الخارقة كانت تكريسا لقيمة اجتماعية ربما عجزت العلوم المادية كلها عن الإقناع بها كما فعلت الأسطورة: إن البطولة ليست نبتا شيطانيا، و انما تنشأ البطولة أصلا من قيمة الانتساب، الى الوطن أو الى القبيلة أو الى الأسرة، فمهما توفرت لدى الانسان مقومات البطولة فإنه لن يكون بطلا حقيقيا إلا إذا مُنح حق الانتماء. وحينما هاجمت قبيلة طىء قبيلة بنى عبس واستغاث شداد بابنه عنترة يستنهض همته وشجاعته - وهو الفارس المنبوذ من أهله - قال له عنترة بكل بساطة آسرة: أنا اليوم عبد لبنى عبس وغداً أكون عبداً لطىء ، يعنى أنه لا فرق لديه طالما أنه سيظل عبدا فى الحالتين سواء انتصرت عبس أو طىء. أما حينما صرخ فيه شداد: ويك عنتر بن شداد، فقد اختلف الأمر، أصبح لدى عنترة قيمة كبيرة يدافع عنها وتستنفر كل قواه الخارقة.

ومن هنا كانت سعادتى بهذا الكتاب لمؤلفه الدكتور **قاسم عبده قاسم**: (بين التاريخ والفولكلور). فما أن صافحنى عنوانه حتى بركت عليه فالتهمته كالأسد الجائع يلتهم فريسة مشبعة.

لقد حدد الكاتب هدفه منذ البداية : البحث فى الموروثات

الشعبية عن تفسير شعبى لحوادث التاريخ، لا البحث عن الأحداث نفسها، أو كما قال: نبحث عن روح التاريخ لا عن جسده. وهذه فى رأينا صياغة متواضعة بالقياس الي المنجز الكبير فى هذا الكتاب، فصحيح أن الباحث أمسك بروح التاريخ فى بعض المصادر الشعبية ولكن بطريقة ساحرة جعلتنا نمسك بجسد التاريخ أيضا. لقد أضاء لنا خلفية الحس التاريخى فى المخيلة الشعبية، كما أعاد قراءة بعض المصادر الشعبية وبعض الحوليات التاريخية بعين محايدة، عين عالم التاريخ المعاصر. وإنى لعلى يقين بأن قراء هذه المكتبة واجدون فى هذا الكتاب ما وجدت من متعة وفائدة. فشكرا له ولكم .

خيرى شلبى



مدخل

تقديم - بدايات المعرفة التاريخية - الأسطورة وعلاقاتها بالمعرفة التاريخية - التسجيلات التاريخية الرسمية - التسجيل الشعبى للتاريخ - عن التاريخ والموروث الشعبى .

التاريخ والمأثورات الشعبية : من المجالات التى حاول الإنسان أن يعبر فيها عن ذاته ففيهما صب تجربته فى رحلته ، التى لم تتم بعد ، عبر الزمان . ومن خلالهما حاول أن يعرف ذاته . ومع ذلك فإن الدراسات التاريخية ظلت فترة طويلة تخاصم الموروثات الشعبية ، وتترفع عن الاستعانة بها . وبسبب غطرسة المؤرخين ، الذين تصوروا أن الوثيقة المكتوبة هى عماد البحث والدراسة التاريخية ، ظلت الموروثات الشعبية ، بكل أشكالها وأنماطها ، بمنأى عن الدراسات التاريخية زمنا طويلاً .

وكان لابد للتاريخ ، بإعتباره علمًا ، يلهث وراء الإنسان فى محاولة لأن يَفْهمه وأن يُفَهمه حقيقة ذاته ، أن يمر بعدة مراحل « تاريخية » حتى يصل إلى الإيمان بضرورة الإستعانة بالفولكلور : أى الموروثات الشعبية .

لقد كان التاريخ واحدا من وسائل الإنسان لمحاولة التعرف على ذاته ، وهو فهم لغز الوجود البشرى : بدايته ومصيره ، وعلاقات الإنسان بالكائنات والظواهر فى هذا الكون . وكان من الطبيعى أن يكون

التاريخ فى بداياته الأولى على شاكلة كافة معارف الإنسان الأولى ؛ ساذجاً وموغلاً فى الأسطورة والرمزية . وكانت تلك بداية خيط العلاقة بين التاريخ والمأثورات الشعبية ؛ إذ ولد التاريخ من رحم الأسطورة ، وتربى فى حجرها . وكانت التدوينات التاريخية الأولى حبلى بالأساطير التى حاولت أن تفسر نشأة الكون وبدايات الإنسان . ولذلك لم يكن غريبًا أن نجد لكل جماعة إنسانية أساطير تتحدث عن الأصول والبدايات ، وتحاول أن تفسر للإنسان البدائى كل الأسئلة المحيرة المربكة التى طرحها الإنسان على نفسه .

فمنذ بدأ الإنسان رحلته على سطح كوكب الأرض راوده سؤال محير مربك ما يزال يلح فى طلب الإجابة حتى الآن : من أين أتى هذا الوجود ، ولماذا ، وإلى أين ؟ وعلى الرغم من أن الأساطير ، والفلسفة ، والدين ، والعلم ، حاولوا جميعا أن يجدوا الإجابة الشافية على هذا السؤال اللغز ؛ فإن السؤال ما يزال يؤرق الإنسان بشكل أو بآخر .

ومنذ البداية ، استخدم الإنسان عدة وسائل وأدوات لتساعده فى البحث عن إجابة لهذا السؤال . وكان « التاريخ » باعتباره علماً ، أحد هذه الوسائل والأدوات التى يستخدمها الإنسان لفهم الوجود الإنسانى فى ماضيه وحاضره ومستقبله .

وهكذا ، تحددت منذ البداية قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية . ومن ثم كانت المعرفة التاريخية ملازمة لوجود

أية جماعة بشرية أيا كانت درجة نموها الحضارى . ولأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يدرك حقيقة الزمان ويعى أن هذا الزمان يحمل التغير والتبدل . فقد حرص على أن يسجل حقائق حياته باستمرار .

وليست النقوش البدائية التي اكتشفها العلماء فى الكهوف التى عاش فيها الإنسان البدائى سوى بدايات المحاولة الإنسانية لتخليد الذات . وليس من المتصور ، بطبيعة الحال ، أن الوظيفة الثقافية / الإجتماعية للمعرفة التاريخية كانت واضحة لدى الجماعات الإنسانية الباكرة بدرجة وضوحها الحالية ؛ بيد أن أحساس الجماعة الإنسانية بالحاجة إلى المعرفة التاريخية كان قائما وموجودا على الدوام . وقد قطعت المعرفة التاريخية رحلة طويلة منذ نشأت في رحم الأسطورة حتى التطور العلمى المثير فى مجال الدراسات التاريخية في العقود الأخيرة من القرن العشرين . وكان هدف هذه الرحلة معرفة الإنسان فى حياته الإجتماعية ، وثقافته التى تحمل عاداته وتقاليده ، سلوكياته وقيمه ومثله ، كما تحمل نتاجه الأدبى والفنى ...

ومن المثير حقا أن المعرفة التاريخية نشأت فى رحم الأسطورة (التى هى نمط من التصور الشعبى للكون والعلاقات والأشياء داخل هذا الكون من ناحية ، كما أنها تعبير شعبى عن رؤية الجماعة لذاتها وأصولها وتطورها التاريخى من ناحية ثانية) ثم عادت فى تطورها الأخير لتمد وشائج الصلة بكل أنماط الموروث الشعبى ...

وهذا هو موضوع الكتاب الذى نقدمه للقارىء العربى .

لقد حاول الإنسان منذ البداية التعرف على ماضيه ليساعده فى فهم حاضره ولكى يدعم وجوده الآنى فى إطار الجماعة الإنسانية من ناحية أخرى . وإذا كان الإنسان قد لجأ إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده فى الكون ، ولتفسير الظواهر المحيطة به ، فإنه فعل ذلك حين كان العقل البشرى مازال فى طور طفولته وحين كانت الأسطورة ملاذ الإنسان لتعويض النقص فى معارفه وذاكرته الجماعية . وقد ظهرت أساطير الخلق والأصول لتحاول الإجابة على الأسئلة المتعلقة بخلق الكون وأصل الإنسان ، وعلاقته بالكائنات والظواهر الأخرى فى الكون : أى أنها كانت المحاولة الأولى للحصول على إجابات يحتاجها الإنسان لتفسير وجوده وقصته فى العالم .

وإذا كان البعض يصف الأسطورة بأنها « العلم البدائى » فإنه ينبغى علينا أن نؤكد من جديد أن المعرفة التاريخية قد نشأت من ضلع الأسطورة . إذ أن أحداث القصص الأسطورية تدور حول أصول الأشياء. وهو ما يعنى أن بذرة التاريخ التى زرعت فى تربة الأسطورة أخذت تنمو تدريجيا ، وبشكل مطرد مع تزايد تحرر الكتابة التاريخية من الخيال والرمز الذى كان سمة أساسية فى «الكتابات التاريخية الأولى».

لقد حاولت الأسطورة أن تفسر كل غوامض الكون للإنسان فى بداية رحلة الوجود الإنسانى ؛ بيد أن الأسطورة عجزت عن توضيح البعد

الزمنى والبعد المكانى فى تجربة الإنسان التاريخية . وذلك أن الزمن فى الأسطورة متداخل دونما تحديد لما هو ماض ، وما هو حاضر ، وماهو مستقبل ، لأن بناء الأسطورة يقوم على أساس أن الزمن لم ينته بل ما يزال مستمراً . ومن ثم ، فإن الفكرة الأسطورية عن الزمن كيفية ومجسمة ، وليست كمية مجردة . ومعنى هذا أن الزمن فى الأسطورة حالة وجود ، وليس حسابا للأيام والشهور والسنين ؛ فالفكر الأسطورى لا يعرف الزمن باعتباره تعاقباً وتتالياً للحظات زمنية متشابهة . ولأن الإنسان الأول لم يعرف فكرة الزمن التى تشكل إطار التاريخ ، فإن الأسطورة كانت بمثابة الحل السعيد لمشكلاته المعرفية .

ومن ناحية أخرى ، فإن علاقة الأسطورة بالمكان هى نفسها علاقة البناء الفنى (فى أى عمل إبداعى سواء فى فنون القول أو فى فنون الشكل) برموزه . إذ أن المكان رمز من الرموز التى تحملها الأسطورة وليس مسرحا حقيقيا لأحداث هذه الأسطورة ، لأن أحداثها تدور خارج حدود الزمان والمكان .

وبما أن العملية التاريخية ثلاثية الأبعاد ؛ لأنها تقوم على العلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته فى إطار الزمان ، فإن تطور المعرفة التاريخية كان يستوجب البحث داخل هذه المنظومة الثلاثية بحيث تحتم انفصال « التاريخ » عن « الأسطورة » فى مرحلة لاحقة .

وعلى أية حال ، كانت أساطير العالم القديم نتاجا لتأملات الإنسان

الكونية العميقة .فهناك الكثير من الأساطير القديمة التى عالجت موضوعات مثل نظام الكون ، وأصل الإنسان ، وشكله ، والحق والعدل ، وبناء الحضارة . ومن هنا يرى بعض الباحثين أن الأسطورة تعبير عن وعى الجماعة بذاتها وإدراكها لهويتها ، كما أنها تعكس بناء الحياة الإجتماعية ، وعلاقة هذه الحياة بعالم الآلهة والقوى الغيبية . فقد ربطت الأساطير الكنعانية ، مثلا ، بين ظروف البيئة من خصوبة أو جدب وبين صراع الإله (بعل) رب الخصوبة والحياة والإله (موت) رب العقم والموت . أما أساطير الخلق الهندية ، فتكشف عن رغبة الإنسان الطبيعية فى الوصول إلى تفسير للغز الوجود الإنسانى : كيف وجد الكون ؟ وكيف يعمل ؟ ومن أين أتى الإنسان ؟ وما وظائف عناصر الطبيعة ، وعلاقتها ببعضها البعض ؟ وما سر القمر والشمس والرياح والعواصف ، والفيضان والجفاف ؟ وما إلى ذلك من تساؤلات .

ولذلك اختلطت محاولات الإنسان الأولى لتسجيل تاريخه بالصياغات الأسطورية ، ولم يكن له أى دور واضح فى الفعل التاريخى فى هذه الصياغات الأسطورية ؛ إذ اتسم التراث الإنسانى الباكر فى مجال الكتابة التاريخية بهذا الخلط المثير بين فعل الإنسان ومشيئة القوى الغيبية . وكانت الكتابات التاريخية الأولى تسجل أحداثا لاتدخل ضمن سياق الفعل الإنسانى ، وإنما كانت تتحدث عن أفعال الآلهة . وكانت تلك الكتابات تحمل سمة تبريرية تحاول أن تجعل الإنسان

راضيًا عن تحكم الملوك الذين زعموا أنهم ضمن حكومات الآلهة ، أو أنهم مندوبون عن الآلهة فى التحكم بمصائر البشر . ولم يكن البشر فى هذه الكتابات التاريخية الأولى يمثلون عنصر القوة والفعل ، ولكنهم كانوا وسيلة هذا « الفعل » وأدواته المسخره بأيدى الآلهة . وهكذا كانت الكتابات « التاريخية » الأولى عبارة عن تواريخ حكومات الآلهة.أو أشباه الآلهة . ولم يكن التاريخ قد نزل بعد من عليائه ليسجل قصة الإنسان فى الكون وسعيه لبناء الحضارة . وهنا نجد الأسطورة تحكم التاريخ ؛ لأن الأسطورة كانت فى ذلك الزمان حكاية مقدسة تلعب أدوارها الآلهة وأشباه الآلهة .

وكان طبيعيا أن تنزل الأسطورة أيضا من سماء الآلهة إلى أرض البشر، وظلت رموزها وشروطها الفنية تحكم النظرة إلى الماضى الإنسانى . وقد اختلف الباحثون حول هذا الأمر؛ فمنهم من يرى أن الأساطير «تسجيل تاريخى» للأحداث الجارية عبر ماضى الجماعات الإنسانية والشعوب ، ومنهم من يذهب إلى القول بأن الأسطورة تمثل تاريخا قبليا متوارثا تناقلته الأجيال المتعاقبة بالتلقين الشفاهى ..

وفى رأينا أن الأسطورة لاتحمل التاريخ كله ، وإنما تحمل «نواة تاريخية»، وفى الغالب تحمل هذه النواة التاريخية تراكمات تعبر عن وجدان الجماعة التى أنتجتها ، كما أنها تعبير عن الذات والهوية وتحمل تصورا نفسيا تعويضيا لصالح الجماعه أكثر منها تجسيد للواقع

التاريخى . ولا يعنى هذا أن الأسطورة نتاج للخيال المجرد ، وإنما هى ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية فى إطار فنى يخدم الأهداف الثقافية الاجتماعية التى يتوق المجتمع لتحقيقها من خلال أساطيره . وعن طريق الأسطورة ومن خلالها ، عرفنا ماعرفناه من تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة التى تعود إلى أزمان سحيقة تسبق «التاريخ المكتوب».

كان تطور المعرفة التاريخية موازيا لتطور البشرية ذاتها . وعندما انتقل الفكر الإنسانى من تبرير الخضوع للحكام باعتبارهم آلهة ، أو مندوبين عن الآلهة ، وبدأت فكرة الملك الذى يملك ويحكم : يملك البلاد ومواردها العامة ويحكم البشر ويتحكم في مصائرهم . وفى هذه المرحلة من مراحل تطور البشرية كان التاريخ مرادفًا لسير الحكام : ملوكا وأمراء وأباطرة ، يسجل كل حركة أو تصرف من تصرفاتهم ، ويعنى بتفاصيل حياتهم ، يسعى فى ركابهم الى ميادين القتال وينصت إلى مفاوضتهم ومحاوراتهم ، ويحكى عن حيلهم ودسائسهم . وكان طبيعيا آنذاك أن يكون التاريخ ربيب القصور ومن يسكنونها ، كما كان طبيعيا أن يكون غالبية المؤرخين دعاة فى خدمة الحكام وأن تكون كتاباتهم فى الغالب الأعم دعاية وتبريرا لسلوك الملوك والأباطرة والسلاطين والأمراء .

والناظر فى تراث الكتابة التاريخية فى الفترة التى نعنيها يكتشف فى يسر وسهولة أن المدونات التاريخية والحوليات والسير : كلها تدور

فى فلك الملوك والحكام ، وأن الرعايا ، صناع التاريخ الحقيقيون غائبون عن صفحات تلك التسجيلات الرسمية . وهكذا يُنْسب عصر بعينه إلى عدة أفراد يقال أنهم صنعوا نهضة هذه الأمة أو تلك . وسنجد كتبا كثيرة فى تراث الأمم الإنسانية على اختلافها ،كرسها من كتبوها لهذا الحاكم أو ذاك دون أن يلقوا بالاً إلى الناس فى حياتهم الإجتماعية ونشاطهم اليومى باعتبارهم القوة التى تحرك تاريخ البشرية .

ولم يحدث سوى فى القرن التاسع عشر ، وفى أوروبا وحدها ، أن بدأ الاهتمام بدراسة التاريخ الإجتماعى والإقتصادى ، أى دراسة تاريخ الشعوب فى حياتها الإجتماعية والإقتصادية ، وكان ذلك صدى للتغييرات التى طرأت على الفكر السياسى ، والتى تبلورت فى الاتجاهات الديموقراطية والاشتراكية التى لم تلبث أن أنتشرت فى سائر أنحاء العالم . ومع الثورة الصامتة التى جرت على الدراسات التاريخية فى القرن العشرين ؛ زاد الاهتمام بدراسة كافة نواحى النشاط الانسانى عبر العصور، وتعددت فروع الدراسات التاريخية بشكل مذهل . ومن أوروبا انتشر الفكر التاريخى الحديث بمذاهبه المتعددة إلى سائر أنحاء العالم ، وظهرت مدارس متعددة فى الفكر التاريخى تردد صداها من أقصى الأرض إلى أدناها . بيد أن نصيب العالم العربى من هذا التقدم العلمى فى مجال الدراسات التاريخية كان قليلا . وتلك قصة اخرى .

هكذا، انتقل الفكر التاريخى فى رحلة طويلة من الأسطورة إلى

التسجيل الرسمى ثم إلى المرحلة الاخيرة التى حققت فيها الدراسات التاريخية مكاسب باهرة . بيد أن الشعوب لم تكن لتسكت عن سرقة تاريخها الذى صنعته ونسبته إلى حفنة من الحكام . وسجلت الشعوب رؤيتها لتاريخها فى فنونها الشعبية بأشكالها المختلفة ، وحملت الموروثات الشعبية كل التفسيرات والرؤى والقيم والمثل والأمانى والتطلعات التى كانت تحرك الجماعات الإنسانية خلال رحلتها الطويلة عبر الزمان .

ولسنا نقول إن الموروثات الشعبية تحمل كل الحقيقة التاريخية ، ولكن مانقصده هو أن الموروثات الشعبية تحمل رؤية الشعب لتاريخه وتفسيره لمسيرته الحضارية، كما تشى بكل ما كان يحركه من قيم أو مثل عليا والنظام الأخلاقى الذى حكم حركته فى الزمان والمكان . والموروثات الشعبية (بغض النظر عن بعض التعريفات الجاهزة المعلبة) تتضمن الأسطورة ، السيرة الشعبية والحكايات والألغاز ، والأمثال ، والأغانى والنكات .. وغيرها مما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائى

والفرق الجوهرى بين التسجيل الرسمى للتاريخ ، والتسجيل الشعبى، هو أن التسجيل الرسمى قصد به أن يكون تاريخا أى أنه مقصود أن يصل للأجيال التالية على النحو الذى تمت به كتابته أما التسجيل الشعبى فهو تسجيل شفاهى تراثى تتناقله الأجيال ، وتزيد عليه

وتعدل فى مضمونه بما يخدم أهداف الجماعة الإنسانية ، دون أن يقصد به أن يكون تاريخا يقرأه الناس فى الأجيال التالية ، ذلك أن الموروثات الشعبية تعبير تلقائى عن الناس فى حياتهم اليومية ، وعن رأيهم فى أحداث تاريخهم ورؤيتهم له.

وإذا كنا نستطيع من خلال المصادر التاريخية التقليدية(الوثائق والآثار وكتب المؤرخين المعاصرين) أن نستعيد صورة الحدث التاريخى من ذمة الماضى فإن هذه الصورة ستظل صورة باهتة لاحياة فيها مالم نفهم أهل العصر الذى ندرسه من خلال عاطفتهم ووجدانهم وقيمهم الأخلاقية ، ومثلهم العليا ، التى حركتهم آنذاك . والموروثات الشعبية مصدر هام للمؤرخ الذى يدرس التاريخ الإجتماعى ، أو النتاج الثقافى لأمة من الأمم .

كذلك ينبغى أن نلاحظ أن الظاهرة التاريخية ، سواء كانت إجتماعية أو غير ذلك لاتصلنا كاملة من خلال شهادات المؤرخين والوثائق والتسجيلات التاريخية الرسمية . إذ أن المؤرخين وكتاب الوثائق لايسجلون سوى جوانب جزئية من الظاهرة التاريخية يعتقدون أنها الجوانب الأكثر أهمية ولا يلحظون الجوانب الأخرى التى تشكل إيقاع الحياة اليومية . هذه الجوانب المهملة من الظاهرة التاريخية (الجوانب الصامتة) هى التى تضمنتها الموروثات الشعبية .

ولأن الآثار والنتائج الناجمة عن أية ظاهرة تاريخية تتخذ شكل تيار

إجتماعى /ثقافى غير مباشر ، ولكنه فى الوقت نفسه تيار مستمر بشكل تلقائى بين الاجيال . وسرعان مايجد هذا التيار الإجتماعى/ الثقافى لنفسه التعبير من خلال فنون الجماعة وآدابها التى درج الباحثون على تسميتها بالفنون والآداب الشعبية وبعض هذه الفنون ينتسب إلى فنون الشكل ، مثل التصوير والرسم والزخرفة وصناعة الحلى والسجاد والملابس والأدوات المنزلية .. وماالى ذلك وبعضها الآخر ينتسب إلى فنون القول . والفنون الشعبية القولية ، أو الأدب الشعبى ، غالبا مايتخذ لنفسه قالب المأثورات الشعبية الشفاهية مثل السير والنوادر والأمثال ، والقصص التاريخية الشعرية ذات الطابع الملحمى ، فضلا عن الزجل والألغاز والنكات والبلاليق والمواويل... وغيرها.

ومايزال الجدل دائراً حتى اليوم حول مدى جدارة هذه الموروثات الشعبية الشفاهية بأن تكون مصدرا للمؤرخ بسبب المشكلات المنهجية التى يثيرها استخدام مثل هذا المصدر فى الدراسات التاريخية ويرى البعض أن اكتشاف « النص الأصلى القديم » الذى تفرعت عنه هذه المأثورات ضرورى لكى نتبين مقدار الحقيقة التاريخية فيها بحيث يمكن تقييم أهميتها أو تقدير قيمتها . بيد أن أصحاب هذا الرأى يتغافلون عن حقيقة أن كل نص شعبى هو «نص أصلى» فى حد ذاته من ناحية، ويتصورون أن الموروثات الشفاهية الشعبية تقرير صادق عن الأحداث التاريخية من ناحية أخرى وهو أمر لا يمكن لمن يدرس التاريخ أن يعول

عليه فى دراسة مثل هذه الموروثات الشعبية الشفاهية .

فنحن نبحث فى الموروثات الشعبية عن تفسير شعبى لحوادث التاريخ ، ولا نبحث عن الأحداث نفسها : نبحث عن « روح التاريخ » لا عن جسده.

* * * *

وهذا الكتاب الذى اخترت له عنوان «بين التاريخ والفولكلور» يضم عدداً من الدراسات فى هذا المجال الذى يهتم بدراسة العلاقة بين الدراسة التاريخية والموروثات الشعبية ومن خلال هذه الدراسات التطبيقية الأربع أحاول أن القى الضوء على جوانب تلك العلاقة على أمل أن يكون ذلك مساهمة فى تطوير مناهج البحث التاريخى ، لاسيما فى مجال دراسات التاريخ الاجتماعى . ومن ناحية أخرى أحاول جذب انتباه الباحثين فى مجال الدراسات الشعبية إلى أهمية الأهتمام بالخلفية التاريخية للفنون التى يهتمون بدراستها ورصدها.

هذه الدراسات الأربع نشر بعضها فى مجلات ودوريات متخصصة ، ولم ينشر بعضها الآخر من قبل واعتبر هذه المساهمة جهدا متواضعا أرجوا أن تصاحبه جهود الزملاء والأساتذة

والله الموفق والمستعان

دكتور/ قاسم عبده قاسم

الهرم أغسطس ١٩٩٣م

الموروث الشعبي والدراسات التاريخية

(خطط المقريزى : دراسة تطبيقية)

الموروث الشعبى والدراسات التاريخية

(خطط المقريزي : دراسة تطبيقية)

مدخل - العلاقة بين الموروث الشعبى والدراسات التاريخية.
(الأسطورة السيرة والحكاية الشعبية الشعر الشعبى)
المادة التراثية الشعبية فى التراث العربى - الموروث
الشعبى فى الخطط المقريزية وطبيعتها - أهمية المادة
التراثية فى الخطط للمؤرخ - ملاحظات ختامية.

ترى ما الرسالة التى يحملها الموروث الشعبى ؟ وماهى القوى التى تبدع أشكال هذا الموروث ، وتحافظ عليه ، أو تعدل فيه ،أو حتى تفسده فى بعض الأحيان؟ وماذا تعنى الحكايات الشعبية والشعر والنكتة والألغاز والأحاجى لمن يرويها ولمن يستمع إليها؟ وماعلاقة هذا كله بالدراسات التاريخية ولا سيما فى مجال التاريخ الإجتماعى؟

هذه الأسئلة الأساسية ، وما يتفرع عنها بالضرورة من أسئلة ثانوية ،

كانت ومازال مجال البحث والدراسة في شتى أنحاء العالم ، وخلقت مدارس متنوعة في الدراسات الشعبية تعكف على محاولة ايجاد الاجابة المناسبة لكل سؤال من هذه الأسئلة (١) بيد أن ما يهمنا في هذه الدراسة أن نحاول الإجابة على السؤال الأخير المتعلق بعلاقة الموروث الشعبي بالدراسات التاريخية عامة ودراسات التاريخ الإجتماعي بوجه خاص.

والموروث الشعبي يتسم بالتلقائية والبساطة من ناحية ، كما أنه يدور حول أمور تتعلق بثقافة المجتمع ، وتقاليده وعاداته وأخلاقه من ناحية أخرى .كما أن هذا الموروث الشعبي عادة مايحمل «نواة تاريخية» إذ أنه يحمل تفسيرات لأحداث «تاريخية» ويحكي عن «أبطال تاريخيين» ويتم ذلك كله بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية التي تخدم الأغراض والغايات الاجتماعية / الثقافية للجماعة . والموروث الشعبي يحمل أفكارا ثابتة حقا تمثل المنحى الثقافي للجماعة ، بيد أنه يحمل أيضا تفسيرات تتجدد مع كل حقبة زمنية لهذه الأفكار الثابتة. ومن ثم فإننا يمكن أن نصف الموروث الشعبي بأنه نوع من «القراءة الشعبية للتاريخ» وهو مايعني أن الموروث الشعبي يعكس رؤية الجماعة لتاريخها بغض النظر عن التفاصيل التي تتعلق بالزمان أو المكان أو

(١) أنظر حول هذا الموضوع :

Linda Degh, "Oral Folklore" ,in: Folklore and Folklife - An Introduction, edited by Richard M. Dorson, (The university of Chicago Press,1972), pp-53-83.

الأفراد فى القصة التاريخية .وإذا كان التاريخ قد اعتبر زمنا طويلا بمثابة المرادف لسير الحكام والقادة وأنباء السياسة والحرب ، فإن التطورات التى أدت إلى الاعتراف بحق الشعوب فى إدارة شئونها قد أدت إلى الاهتمام بالجوانب المختلفة من نشاط الشعوب وكان للتاريخ نصيبه من هذا الاهتمام بطبيعة الحال.

إذ أن التاريخ بوصفه نتاجا لمسيرة الشعوب الحضارية لابد أن يشمل كافة نشاطات بنى الإنسان فى رحاب البيئة عبر الزمان . وعلى الرغم من اتفاق المؤرخين على هذا المفهوم حاليا ، فإن هذا المفهوم حديث إلى حد كبير. إذ أن هذا المفهوم خرج إلى الوجود نتيجة الاتجاهات الديموقراطية والاشتراكية التى تسببت فى بزوغ اتجاهات جديدة فى الدراسات التاريخية تركز على مجالات الاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن والدبلوماسية ، فضلا عن تاريخ النظم السياسية ومؤسسات الحكم ، والهيئات الدستورية . وكانت هذه الاتجاهات الجديدة نتاج البيئة الفكرية الاوروبية التى حكمتها ظروف نشوب الحرب العالمية الأولى من جهة وتراجع مسلمات القرن التاسع عشر أمام زلزال النظرية النسبية وآراء فرويد فى علم النفس من جهة ثانية (٢) فعلى الرغم من أن الدراسات التاريخية فى القرن العشرين قد نمت وتطورت بفضل ثورة صامتة أدت إلى

(٢) Arthur Maruick, The Nature of History, (Macmillan, Londn1973), pp.56-57

وجود تيار «التاريخ الجديد» بكل اتجاهاته، فإن علم التاريخ فى بداية هذا القرن كان مايزال يضرب بجذوره فى أساليب الدراسة والبحث التى تم إرساؤها فى القرن التاسع عشر . وقد أدى ، هذا ، بطبيعة الحال ، إلى عدد من ردود الأفعال تجاه الأشكال الضيقة الصارمة التى قيد التاريخ فى إسارها تحت تأثير أتباع «ليوبولد فون رانكه» العاريين من أية قدرة خيالية .

وتمثلت ردود الأفعال هذه فى التطور الذى أفرز فروع الدراسات التاريخية المختلفة وصحب هذا التطور فى مجالات الدراسات التاريخية تطور مواز فى مجال العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية . ولأن الدراسات التاريخية فى الغرب الأوروبى هى الرائدة فى العالم منذ القرن الثامن عشر الميلادى على الأقل ، فقد كان طبيعيا أن تترك هذه التطورات تأثيراتها ، بقدر من التفاوت ، فى شتى انحاء العالم .

وكانت النتيجة المنطقية لهذه التطورات أن ظهرت فروع الدراسات التاريخية فى كل مجال، باعتبار أن نشاطات الإنسان فى الكون على امتداد الزمان هى ميدان عمل المؤرخ . وقد أدى هذا إلى تنوع «مصادر» الدراسات التاريخية ، كما تنوعت علاقات الدراسة التاريخية بالعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى على نحو جدلى جعل كلا منها يؤثر فى الآخر ويتأثر به . ومن ثم لم تعد الحوليات والمدونات التاريخية والوثائق والآثار هى المصادر «المحترمة» الوحيدة فى عيون المؤرخين ، وإنما صارت

« القراءة الشعبية للتاريخ » - أى رؤية الشعوب لتاريخها وتفسيرها له - من أهم مصادر المؤرخين المشتغلين فى مجال دراسات التاريخ الإجتماعى .وصار «الموروث الشعبى » بكافة أجناسه القولية والشكلية، مادة ذات وزن كبير يقيم عليها دارسو التاريخ الإجتماعى دراساتهم وكان هذا التطور قائما على فكرة منطقية مؤداها أنه ليس من المعقول ، أو المقبول أن ندعى أننا نفهم مجتمعا ما دون أن نعرف كيف يرى أبناء هذا المجتمع أنفسهم فى مرآة الزمان ، وماتفسيرهم لأحداث تاريخهم.

و«الموروث الشعبى» يتضمن الابداعات التراثية للشعوب ، سواء كانت بدائية أو متحضرة ويتضمن كل ماتم إنجازه عن طريق استخدام الأصوات والكلمات فى أشكال غنائية شعرية أو نثرية ، متضمنة الاعتقادات الشعبية أو الخرافات والعادات والتقاليد والرقصات والتمثيليات (٣) ويحمل «الموروث الشعبى »من خلال هذا كله رؤية الشعوب لأصولها ، ولأحداث تاريخها وأبطال هذا التاريخ ، كما يحمل تفسيرات للمظاهر الطبيعية فى البيئة التى كانت مسرحا للنشاط الحضارى عبر التاريخ ، ويتضمن علاقة كل شعب بغيره من الشعوب ، ورؤية هذا الشعب للكون وللأشياء داخل هذا الكون . وفى رأى بعض الباحثين أنه فى الثقافات الشفوية الخالصة يكون كل شىء داخلا فى

---

(٣) Maria Leach (ed), Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend, (Harper and Row,New york (1984), art. Folklore,pp.398-403.

إطار الموروث الشعبى على حين أن مايميز الموروث الشعبى فى المجتمع الحديث هو تفوق الموروث على العناصر التى تم اكتسابها بالتعليم بحيث يكون «الموروث الشعبى » منهلا يستقى منه الخيال الشعبى ما يدعم به عاداته وتقاليده (٤) ومن هنا يحمل « الموروث الشعبى » التاريخ الشفاهى الذى يفى بالحاجات الإجتماعية / الثقافية للجماعة ، كما يحقق بعض الصياغات النفسية التعويضية للحوادث التاريخية وأبطالها. ويحدث هذا كله بشكل يجمع بين البساطة والتلقائية التى تميز الإبداع الشعبى عادة .

وأهمية هذا النوع من التفسير الشعبى للتاريخ » أو « الرؤية الشعبية للتاريخ » أنه يأتى فى مواجهة مايكتبه المؤرخون المحترفون - سواء فى العصور السابقة أو فى عصرنا الحالى - من مؤلفات تعكس آراء أولئك المؤرخين وتفسيراتهم. وقد مكث المؤرخون زمنا طويلا يتجاهلون نتاج العامة الثقافى بروح من التعالى والغطرسة التى جعلتهم يضربون عرض الحائط بماظنوه ضربا من العبث والخرافة التى تناسب عقول العامة وإدراكهم . بيد أن التطورات التى أشرنا اليها من قبل فى مجال الدراسات التاريخية دفعت بالمؤرخين إلى الاعتراف المتزايد بما طال السكوت عنه من «الموروث الشعبى».

ففى الآونة الأخيرة زاد اعتماد الدراسات التاريخية على هذا النوع

(٤) Standard Dictionary, p. 399.

الجديد من «المصادر التاريخية» إلى جانب المصادر التاريخية التقليدية، بحيث بات من الخطر الآن تناول أية ظاهرة فى مجال التاريخ الاجتماعى دون الأهتمام بالموروث الشعبى ذلك أن «الموروث الشعبى» ليس مجرد مادة مصدرية خام للمؤرخ فحسب ، ولكنه أيضا دليل مرور إلى عالم من الرموز والمفاهيم والمثل والنظم القيمة والأخلاقية التى تحكم تاريخ المجتمع من ناحية ، كما تشكل عادات وتقاليد هذا المجتمع التى تجسد رؤيتة للكون والعلاقات داخل هذا الكون من ناحية أخرى . وفى رأى البعض أن التراث الشعبى ، الذى هو جملة التراث غير المسجل للشعب كما يتجلى فى القصص الشعبية والعادات والمعتقدات ، والسحر والطقوس، هو موضوع علم تاريخى هو علم الفولكلور . ويقول أصحاب هذا الرأى أن علم الفولكلور علم تاريخي لأنه يحاول القاء الضوء على ماضى الإنسان ، وهو علم لأنه يجهد فى الوصول الي هدفه من خلال المنهج الاستقرائى الذى يستخدمه كافة العاملين فى مجال البحث العلمى، وليس من خلال التخمين أو الاستنباط (٥).

ومجال علم الفولكلور هو إعادة بناء التاريخ الروحى للإنسان ، ليس من خلال أعمال الشعراء والفنانين والمفكرين البارزة ، ولكن كما مثلتها أصوات الناس . وفى هذا يعكف الباحثون على مادة تبدو «تاريخية» إلى حد ما ، وهى المادة التى تعكس الأساليب الشعبية المتعارضة مع

(٥) Ibid, p 403.

أساليب المتعلمين والفنانين ، وأساليب التفكير المدربة تدريبا علميا . ومن هذه الناحية نجد أن مجال علم الفولكلور يتطابق مع مجال الدراسات التاريخية التى تهتم بتطور المجتمع وإعادة بناء «التاريخ الروحى للإنسان » من خلال فحص إبداعاته التلقائية .وهو ما يجعل الباحثين يعكفون على دراسة كل «الموروث الشعبي» بداية بالأسطورة وانتهاء بالشعر الشعبى مرورا بالسيرة والملحمة والحكاية الشعبية .

وعلى الرغم من أن هناك عدة تفسيرات للأسطورة (٦) فإنها فى شكلها العام قصة تروى على أنها حدثت بالفعل فى عصر سابق لكى تفسر الميراث الكونى والخرافى لشعب ما ، وتتناول آلهته ، وأبطاله واتجاهاته الثقافية ، ومعتقداته الدينية .. وما إلى ذلك أى أن الأسطورة تفسر الأمور إعتمادا على «علوم ماقبل عصر العلم» . وهكذا تتحدث الأساطير عن خلق الإنسان والحيوان والعالم الأرضية ، كما تحاول تفسير الخصائص التى تميز حيوانا ما ، ولماذا وكيف نشأت هذه الظاهرة الطبيعية أو تلك ، كما أن الأسطورة تفسر لنا سبب وكيفية بداية الطقوس والشعائر والاحتفالات التى يمارسها الناس فى المجتمع ، ولماذا تستمر . باختصار تتناول الأساطير كل الأصول فى حياة الإنسان

(٦) انظر :فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى – دراسة فى الأسطورة : سورية وبلاد الرافدين (دار سومر ، نيقوسيا ، الطبعة السادسة ١٩٨٦م) ، ص ١١ – ص٢٣ .

Cf. Standrd Dictionary of Folklore, Mythology and Legends, arts. Legend, p.612; Myth, pp.778-790.

والكون من حوله. لقد لجأ الإنسان إلى الأسطورة عندما كان العقل البشرى مايزال فى طور طفولته الأولى ولم يكن لديه من المعرفة العلمية مايساعده على كشف غياهب الكون من حوله . ومن ثم كانت الأسطورة ملاذا ومعينا .

لقد كانت الأسطورة هى العلم البدائى ووجد الإنسان فيها تفسيرا حين كانت المعرفة العلمية ماتزال مطوية فى رحم المستقبل ، فقامت الأسطورة بترقيع النقص فى ذاكرة الإنسان وعوضت جهله بالأصول الطبيعية والأصول التاريخية لكثير مما يحيط . به ولذلك كانت أساطير العالم القديم نتاجا لتأملات الإنسان الكونية العميقة حول البيئة ونظام الكون وأصول الشعوب ضلا عن بعض القيم الإنسانية مثل الحق والعدل والجمال والشجاعة من ناحية، كما كانت الأساطير تعبيرا عن وعى الجماعة الإنسانية بذاتها وإدراكها لهويتها ، وانعكاسا للبناء الاجتماعى وعلاقات المجتمع بعالم الآلهة والقوى الغيبية من جهة أخرى (٧) هكذا كانت الأسطورة تفسر كل شىء للإنسان بـ «علوم ماقبل عصر العلم» على نحو ماذكرنا من قبل . ومن ثم اختلطت محاولات الإنسان الأولى فى بناء المعرفة العلمية بالأسطورة من ناحية ، كما ارتدت التسجيلات التاريخية الباكرة ثوبا أسطوريا من ناحية ثانية .

---

(٧) صمويل نوح كريمر ، أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف ، الهيئة المصرية العامة لكتب ١٩٧٤م) ، ص٧ – ص٨ ؛ قيس النورى ، الأساطير وعلم الأجناس، (بغداد ١٩٨١م) ص١٠ ، ص١١ .

وفى الأساطير لانجد ـ عادة ـ دورا واضحا للإنسان فى مجال الفعل التاريخى ، كما أن البعد الزمانى والمكانى غائبان تماما عن البناء الأسطورى ، فالزمن فى الأسطورة لا ينتهى بل هو مستمر أبدا . لأن زمان الأسطورة كيفى مجسم وليس كميا مجردا (٨) وبعبارة أخرى ، تحاول الأسطورة أن تجسد الزمن بحيث يظل ساريا بدلا من انقطاعه فى لحظة ما من الماضى ، كما أنها لا تلتزم بإطار البيئة مكانا لأحداثها فالأسطورة تجرى دائما خارج حدود الزمان والمكان ولا تتخذ الأساطير اشكالا محددة أو نماذج بعينها عادة ، وذلك لأنها شملت كافة نواحى الحياة التى خضعت لتأملات الإنسان الأول والتى عجز عن تفسيرها وفى بعض الأحيان كانت الأسطورة تنزل من عالم الآلهة وحكومات الآلهة لترصد تاريخ الإنسان وتسجله وفق شروطها الفنية وفى أطار رموزها ، وهنا نستطيع القول بأن الأسطورة تحمل « نواة تاريخية » ، أو تدور حول ظاهرة طبيعية حقيقية ، ثم تحملها بتراكمات خيالية تعبر عن وجدان الجماعة والأسطورة بهذا المعنى ليست نتاجا للخيال المجرد ، بل هى ترجمة لملاحظات « تاريخية » حقيقية ورصد لحوادث جارية وظواهر طبيعية قائمة بيد أن هذا كله يتم فى إطار فنى شعبى يخدم الأهداف الروحية والاجتماعية / الثقافية للجماعة .

---

(٨) حسام الألوسى ، الزمان فى الفكر الدينى والفلسفى القديم (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م) ، ص٣٩ – ص٤٠

وعن طريق الأساطير ، ومن خلالها عرفنا ماعرفناه من تجارب الإنسان في بواكير رحلته التى لم تتم بعد ـ عبر الزمان ووقفنا على خبرات الأولين المباشرة التى تعود إلى أزمان سحيقة تسبق التاريخ الإنسانى المكتوب وأهمية الأساطير هنا ، بالنسبة للمؤرخ ، تكمن فى أنها تؤدى وظيفة هامة لكشف غوامض تلك الفترة التى يجب البعض أن يسميها فترة ماقبل التاريخ» وهى تسمية خاطئة على أية حال لأن تاريخ الإنسان سبق محاولاته لتدوين هذا التاريخ من ناحية كما أن الموروث الشعبى «أو الأساطير» من مكوناته حمل بصمات هذه الفترة المؤهلة فى الزمن من ناحية أخرى، ذلك أن الأساطير تساعدنا فى التعرف على ماأسماه بعض الباحثين «.. نظام فكرى متكامل استوعب قلق الإنسان الوجودى ، وتوقه الأبدى لكشف الغوامض التى يطرحها محيطه ..» (٩) وإذا كان فضل علم الآثار كبيرا فى إزاحة النقاب عن كثير من جوانب التاريخ الإنسانى فى الفترة السابقة على التايخ المكتوب ، فإن فضل أساطير العالم القديم لا يقل عن فضل علم الآثار فى هذا المجال . والمثال الواضح لتعاون علم الآثار مع الأساطير . للتعرف على تاريخ الإنسان فى الماضى البعيد يتجسد فى بحوث الأثريين وحفرياتهم لتحقيق ماجاء فى الإلياذة والأوديسية المنسوبتين إلى هوميروس (١٠)

(٩) فراس لسواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص٢١

(١٠) قاسم عبده قاسم ، « تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العشرون - العدد الأول (ابريل - يونيو ١٩٨٩) ، ص١٩٧؛ لطفى عبد الوهاب ، « عالم هوميروس » ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى عشر (أكتوبر / ديسمبر ١٩٨١م) ص١٢،ص١٥

وقد أثمر هذا التعاون معرفة أوسع نطاقاً عن حياة الإغريق القدماء فى تلك الفترة من تاريخهم. وكانت النتيجة الحتمية لهذا أن تخلت نظرة المؤرخين المتعالية إلى الأساطير عن مكانها لنظرة أخرى أكثر اهتماما بما تضمنته الأساطير باعتبارها أول «التسجيلات التاريخية» من ناحية ، ولأنها تحوى التاريخ الروحى ، ونظام القيم والأخلاق والاتجاهات الثقافية للإنسان الأول فى سعية الدائب الدائم لكشف غوامض الكون.

أما السير والحكاية الشعبية ، فإنها أكثر «تاريخية » من الأساطير بطبيعة الحال إذاً أنها أقرب لأن تكون رؤية وجدانية شعبية للتاريخ وأحداثه وأبطاله . ومن ناحية أخرى لا ينتمى فن الحكاية الى عصر بعينه وإنما هو نتاج تاريخى مستمر فى إطار فنى تلقائى ذلك أن حافز الإنسان لرواية القصص وحاجته لسماع تلك القصص جعلت من الحكاية الرفيق الطبيعى للإنسان عبر تاريخ الحضارة فالحكاية الشعبية قادرة باستمرار على مواءمة نفسها مع أى مناخ محلى واجتماعى . وعلى الرغم من أن الحكاية الشعبية قديمة مبجلة ، فإنها فى الوقت نفسه جديدة معاصرة ويلاحظ دارسو الحكاية الشعبية أنها تتضمن أفكارا ثابتة بيد أنها تخضع دائما لتفسيرات متجددة (١١) ولأن الحكاية الشعبية ابداع فنى تشكله وتحمله الجماعة الإنسانية ، فإن الأشكال المختلفة للحكايات

(١١) Linda Degh, "Oral Falklore", p.53

الشعبية ، بما تحويه من عناصر رمزية وهياكل بنيوية ، ليست فى حقيقتها سوى أشكالا كلية لفن شفاهى تلقائى

والرواى فى السيرة أو الحكاية الشعبية يخاطب جمهوره بما يحب أن يسمع وفى مصطلحات يفهمها ، فى إطار من القيم والأخلاقيات التى يعتنقها الجمهور المتلقى ويلتزم بها. من ناحية أخرى نجد السيرة الشعبية تختار «شخصا تاريخيا» وتعيد صياغته فى إطار شعبى يلبى حاجات الجماعة ويفسر التاريخ لصالح الناس، صناع التاريخ الحقيقيين. فالتاريخ تصنعه الشعوب ويسرقه الحكام منذ أقدم العصور ، وتشهد بهذا سجلات الملوك والحكام وكتابات المؤرخين الذين عاشوا فى كنفهم ، أو بالقرب منهم . بل أن المؤرخين «المستقلين» اتفقوا مع هؤلاء وأولئك فى النظر إلى التاريخ باعتباره سجلا لأعمال الحكام ومآثرهم ، وهو ماأدى بالضرورة إلى تجاهل أحوال الناس العاديين والترفع عن تدوين أخبارهم . ولأن معرفة التاريخ ضرورة لأية جماعة إنسانية ، إذ تجد الشعوب فى تاريخها سندا لوجودها الآنى، وإدراكا لهويتها وتحقيقا لذاتها ، فإن الشعوب تنقل تاريخها من جيل إلى جُيل يليه بشكل تلقائى بسيط من خلال موروثاتها الشعبية . وغالبا مايكون هذا التاريخ محملا بكثير من الخيال الذى يكشف عن كيفية القراءة الشعبية لأحداث التاريخ ، وهى قراءة نفسية تعويضية لصالح الجماعة الإنسانية التى تصر على إثبات دورها فى صياغة تاريخها . والمتأمل فى حكايات

ألف ليلة وليلة ، أو سيرة الظاهر بيبرس ، أو السيرة الهلالية ، أو على الزيبق.. أو غيرها ، يجد أكثر من دليل على صحة ماذهبنا إليه فى السطور السابقة .

وتكمن أهمية هذه المواد التراثية الشعبية بالنسبة للمؤرخ فى أنها تعتبر مادة هامة من بين المصادر التى تساعده على تفسير الظواهر التاريخية وفهمها، كما أنها تحمل مايمكن أن نسميه «البعد الثالث» فى الظاهرة التاريخية . فإذا كان التاريخ بمفهومه التقليدى والتعليمى يعتمد على دراسة حركة الإنسان فى بعدها الرأسى الصاعد ، أى من حيث موقعها الزمنى ، وبعدها الأفقى الممتد أى المكان، فإن الرؤية الشعبية تضيف بعدا ثالثا ـ يجسد الرؤية الوجدانية للتاريخ بحيث يضفى عليه طابعا روحيا نفسيا يكسبه الصفة الكلية الشاملة .

فالتاريخ كما ندرسه وفق المناهج السائدة يعتمد على شهادات جزئية سواء كتبها المؤرخون المعاصرون ، أو حملتها السجلات والوثائق ، أو غيرها من مصادر المعرفة التاريخية . ويعتمد دارسو التاريخ على هذه الشهادات التاريخية الجزئية ذات البعدين الزمانى والمكانى فى محاولة إعادة تركيب الظاهرة التاريخية تركيبا فسيفسائيا وفق منهج استردادى صارم .وقد كان هذا أمرا يرضى غرور المؤرخين وغطرستهم فى ظل سيادة مدرسة ليوبول فون رانكه وتلاميذه أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . ومايزال كثير من المؤرخين اليوم يقدسون

الوثائق وشهادات المؤرخين المعاصرين وما تنطق به المصادر التاريخية التقليدية باعتبار أن تلك هى الحقيقة التاريخية . وعلى الرغم من احترامنا لهذه المصادر فإننا نرى أنها وحدها لا تستطيع أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية . إذ أنه لا يمكن للشهادات الجزئية أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية وإنما غاية مايمكنها أن تقدم لنا جانبا جزئيا من هذه الحقيقة التاريخية .

اما «الموروث الشعبى » فيقدم لنا رؤية جمعية للحقيقة التاريخية،لأن الجماعة فى رؤيتها للحدث التاريخى تقفز فوق التفاصيل وعلاقات الزمان والمكان ولا تهتم سوى برسم صورة كلية حبلى بكل الرموز الإجتماعية والثقافية ، كما تحرص على بلورة موقفها التاريخى إزاء الحدث . وهذه الصورة الشعبية غالبا ماتحمل وعى الجماعة بذاتها ، كما تحمل فى طيات أحداثها الخيالية كثيرا من المضامين التاريخية .

ومن هنا تبرز أهمية اعتماد المؤرخ على «الموروث الشعبى » إلى جانب مصادره التقليدية . ذلك أن المزاوجه بين هذين النوعين من المصادر يساعد المؤرخ على استيعاب الظاهرة التاريخية ورسم صورة كلية لها.

ولأن جمهور السيرة الشعبية والحكاية الشعبية ، وأصحاب المصلحة فيها ، هم عامة أبناء الشعب ، فإن الراوى عادة مايحاول الوفاء بالحاجات النفسية والوجدانية لهم ويقدم فى رواية المادة التى تشبع هذه الحاجات وترضى الجمهور : فيصور بطلا من أبناء الشعب يحمل كل الصفات

التى يحب العامة أن تكون فى زعمائهم ، كما يحور الشخصيات التاريخية الحقيقية بالشكل الذى يوافق الرؤى والآراء الشعبية فى تلك الشخصيات على نحو ماهو واضح فى سيرة الظاهر بيبرس على سبيل المثال . كما أن أحداث السيرة تجرى فى الاتجاه الذى يخدم الهدف النفسى التعويضى للناس .

ومن ناحية أخرى ينبغى أن يكون خطاب السيرة أو الحكاية لجمهورها فى مصطلحات ومفردات يفهمها هذا الجمهور ويعرفون مدلولاتها . ولذلك نجد السيرة أو الحكاية الشعبية محملة بأسماء الحرف والصناعات والمهن المختلفة فى المجتمع فى عصر ما من عصوره التاريخية ، كما أن الألقاب وأسماء الوظائف الديوانية والادارية والعسكرية ومفردات الحياة اليومية فى ثنايا السيرة أو الحكاية تمثل زادا هائلا من المعلومات التاريخية الحقيقية . إذ أن هذه المصطلحات والمفردات كلها أدوات لابد للراوى أن يستخدمها لكى يتواصل مع جمهوره . وفضلا عن ذلك كله ، فإن السيرة أو الحكاية الشعبية تحمل صدى النظام الأخلاقى والقيم والمثل والعادات والتقاليد السائدة فى المجتمع الذى أنتج السيرة أو الحكاية . وفى معظم الأحوال تأتى مثل هذه الابداعات الشعبية محملة بأصداء العصر الذى تمت فيه ، إذ أن الحكاية تدور حول أفكار اساسية ثابتة ، ولكنها تخضع بشكل مستمر للتحوير والتبديل وتغير من تفاصيلها بحيث تناسب الجمهور المتلقى

وتلبى حاجاته الاجتماعية / الثقافية .

ولا يقل الشعر الشعبى أهمية عن السيرة أو الحكاية الشعبية . فإذا كان الموروث الشعبى هو مستودع حكمه الشعوب ورؤاها وفلسفتها الشعبية (١٢)، فإن هذا القول ينسحب أيضا على الشعر الشعبى الذى يحمل رؤية الشعب لتاريخه ولكن فى إطار فنى يختلف عن سائر فنون الأدب الشعبى. كما أن مايميز الشعر الشعبى عدم الحاجة إلى راو محترف، لأن كل واحد من أبناء الشعب يمكن أن يتحول إلى واحد من رواة هذا الشعر الشعبى على نحو أو آخر وبالشكل الذى يكفل الانتشار السريع . وعلى الرغم من أن الشعر الشعبى قد يكون فى أحيان كثيرة من إبداع شعراء معروفين فإن تلقائيته وجمالياته الشعبية وموضوعاته تجعل الجماعة تتبناه بحيث يصير إبداعا جمعيا يعكس جوهر التاريخ كما يراه الشعب. وفى كثير من الأحيان نقرأ فى الشعر الشعبى تاريخا للعصر الذى قيل فيه، بمعنى أنه يصور الحياة السياسية ويعكس الجوانب الاجتماعية والإقتصادية والفكرية للجماعة . ولعل الشعر الشعبى فى عصر سلاطين المماليك بمصر (١٢٥٠-١٥١٧م)خير مثال على ذلك (١٣).

---

(١٢) محمد رجب النجار ، « الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك » ، عالم الفكر ،(المجلد الثالث عشر - العدد الثالث) ، ص٧٨٩.

(١٣) عن هذا الموضوع انظر : محمد رجب النجار « الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك » ، عالم الفكر (المجلد الثالث عشر - العدد الثالث » ص٧٧٥ - ص٨٥٨ ؛ (المجلد الرابع عشر - العدد الأول) ص١٩٣ - ص٢٧٦ ؛ أحمد صادق الجمال ، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى القاهرة ١٩٦٦ م) ص ١٩٥ - ص٢١٦ .

ومن هنا نجد أن الشعر الشعبى حظى بالإعتراف المتزايد من جانب المؤرخين بإعتباره مادة مصدرية هامة تعكس لنا جوانب حية من حياة الشعوب والجماعات الإنسانية لا يمكن أن نجدها فى المصادر التاريخية الأخرى . وفى هذا المجال ينبغى أن نشير إلى أن الشعر الشعبى والآثار كانا المصدرين الوحيدين، تقريبا، فى معرفتنا بالتاريخ الباكر للجماعات الجرمانية : إذ أن أنشودة «نيبولنج» و«وملحمة بيوفولف» الشعرية والحكايات الشعرية الاسكندنافية الباكرة مكنت المؤرخين من أن يتعرفوا على الكثير من العادات والتقاليد والقيم والأخلاقيات التى حكمت القبائل الجرمانية قبل أن تبدأ غزوها لأملاك الأمبراطورية الرومانية، وعالم البحر المتوسط . ومن ناحية أخرى فإن الشعر الجاهلى «وأيام العرب» التى مزجت بين الشعر والنثر، ماتزال من مصادرنا الهامة فى دراسة تاريخ الفترة السابقة على الإسلام فى شبه الجزيرة العربية (١٤) وعلى أية حال، فإن الشعر يختزل المعرفة التاريخية فى صورة كلية لا يمكن للمصادر التاريخية التقليدية التى تهتم بتسجيل التفاصيل الجزئية أن تقدمها . ومن المعلوم أن أرسطو قد أعلى من شأن الشعر على حساب التاريخ فى كتابه «فن الشعر» (١٥) ذلك أنه قال أن الشعر يهتم بالكليات والثوابت على حين يحاول التاريخ الحصول على المعرفة من خلال الأحداث المتغيرة .

---

(١٤) قاسم عبده قاسم «تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية»، ص١٧٨ - ص١٧٩ .

(١٥) أرسطو طاليس، فن الشعر - مع الترجمة العربية وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد، (ترجمة عبد الرحمن بدوى - النهضة المصرية ١٩٥٣) ص٢٦ - ص٢٧ .

وإذ عرضنا فى الصفحات السابقة لأهمية العلاقة بين الموروث الشعبى والدراسات التاريخية من خلال بيان أهمية الأسطورة والسيرة الشعبية والحكاية الشعبية والشعر الشعبى فى ميدان الدراسات التاريخية بشكل عام ، فإن من المهم أن نشير إلى أن تراثنا العربى الذى وصلنا من عصور التألق الفكرى فى رحاب الحضارة العربية الاسلامية قد ضم الكثير من المورث الشعبى بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية فضلا عن الموسوعات ودوائر المعارف .

ويضم التراث العربى المدون قسما كبيراً من التراث الشعبى العربى ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى حكايات « ألف ليلة وليلة » والسير الشعبية المختلفة التى وصلتنا فى نسخ مدونة اختلف مضمونها حسب مكان تدوينها وتاريخ التدوين . ويشير أحد المتخصصين فى التراث الشعبى إلى أن التراث الشعبى العربى ينقسم إلى قسمين كبيرين ، أحدهما « لا يزال بوظائفه الحيوية والفكرية والنفسية والجمالية حيا فاعلا ومؤثرا فى بنية الفكر العربى حتى اليوم وهذا مايسميه علماء الفولكلور بالمأثورات الشعبية . أما القسم الآخر ، فهو هذا الجزء من المادة أو العناصر الفولكلورية التى تحجرت أو توقفت وظائفها منذ زمن بعيد وتحولت إلى مجرد رواسب ثقافية احتفظت بها كتب التراث العربى ولم تعد لها الآن من قيمة سوى قيمتها الثقافية وقد أطلق عليها أصحاب الموسوعات القدامى كالنويرى والقلقشندى مصطلح «الأوابد» على حين

يطلق بعض الفولكلوريين العرب المعاصرين عليها مصطلح «التراث الشعبى» وذلك أن مصطلح التراث الشعبى فى رأيهم هو المصطلح الأوسع الذى يتضمن العناصر أو المادة الفولكلورية بقسميها: الحية (المأثورة والجمع مأثورات) وغير الحية (الأوابد أو الرواسب التراثية) وهذا مافعله قديما علماء العرب إبان عصر الجمع والتدوين (١٦).

ولا نكاد نجد كتابا واحدا من كتب التراث العربى يخلو من أثر أو أكثر من التراث الشعبى العربى ، سواء كان هذا الكتاب موسوعة مثل «نهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى «وصبح الأعشى فى صناعة الانشا» للقلقشندى،و «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمرى ، أو كتب الجغرافيا وتقويم البلدان والرحلات ، وهى كثيرة ومثيرة، أو كتب فتوح البلدان والفضائل التى كتبها علماء كل بلد بقصد المفاخرة ومنافسة علماء البلدان الأخرى. وكان ذلك نمطا من التأليف ساد فى عصور ازدهار الثقافة العربية الإسلامية وخلف لنا تراثا هائلا من المعلومات التاريخية والجغرافية والفولكلورية والأنثروبولوجية والاجتماعية والسكانية ، فضلا عن المعلومات المتعلقة بتواريخ المدن الاسلامية وتطورها .

كذلك فإن كتب التاريخ العام ، والتراجم ، وكتب السير التى

---

(١٦) محمد رجب النجار ، « مصادر دراسة المأثورات الشعبية فى التراث العربى » دراسة غير منشورة ، ص١ - ص١٨ .

خصصت للملوك والسلاطين وكتب الخطط ، والكتب ذات الموضوع الواحد «الرسائل» (التى كان أشبه بالعدد الخاص الذى تصدره إحدى المجلات اليوم : «إذ كانت الرسالة تؤلف عادة بمناسبة حادثة طارئة أو موضوع بعينه مثل «كوكب الروضه» للسيوطى، أو «إغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقريزى ، أو «الفيض المديد فى النيل السعيد» للمنوفى وغيرها) نقول أن هذه المؤلفات حملت بين ثناياها الكثير من عناصر «الموروث الشعبى» كما أن كتب الأدب ـ بطبيعة الحال ـ قد حملت لنا الكثير من ملامح هذا الموروث الشعبى على الرغم من احتفالها بأدب الصفوة أو المتعلمين . وإلى جانب هذا وذاك وجدت كتب تحمل مادة تراثية شعبية خالصة مثل المجموعات القصصية التراثية التى تنوعت إتجاهاتها مثل «نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة» «والفرج بعد الشدة» للتنوخى (١٧) وكتب النوادر، والقصص العاطفى والاجتماعى وقصص البطولة والفروسية وغيرها من ضروب الفن القصصى (١٨) ويحفل التراث العربى المدون بكثير من الكتب التى حملت بين دفتيها مادة فولكلورية خالصة مثل كتب الأمثال والألغاز وكتب الغرائب والعجائب ، وكتب الصوفية بما حوته من مادة خيالية عن معجزات الصوفية

(١٧) انظر الدراسة التى قدمها الدكتور محمد حسن عبد الله عن كتاب الفرج بعد الشدة : محمد حسن عبد الله « كتاب الفرج بعد الشدة للقاضى التنوخى – دراسة فنية تحليلية »،مجلة عالم الفكر ، المجلد الرابع عشر – العدد الثانى (يوليو – سبتمبر ١٩٨٣) ، ص٧١- ص١٢٦ .

(١٨) محمد رجب النجار ، « مصادر دراسة المأثورات الشعبية » ص٢٣ – ص٢٥ .

وكراماتهم . لقد استخدم المؤرخون القدامى المادة التراثية ووظفوها فى خدمة الهدف الذى ألفوا كتبهم من أجله .

ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر الموروث الشعبى فى كتب التراث العربى التى لم تخضع ، حتى الآن ، لدراسة منهجية منظمة لا يستطيع باحث فرد أن يقوم بها ، وإنما تستدعى جهود مؤسسة منظمة (١٩).

ومن بين الكتب الهامة التى تحوى مادة هامة من الموروث الشعبى كتاب« المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار »والمعروف بالخطط المقريزية نسبة إلى مؤلفه المؤرخ المصرى الشهير تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥هـ) (٢٠) وقد أمضى المقريزى حوالى ثلاثة وعشرين عاما فى جمع هذا الكتاب وتأليفه فيما بين سنة ٨٢٠ هـ وسنة ٨٤٣ هـ . ولاغرو ، فالكتاب بمثابة موسوعة جامعة حشد فيها تقى الدين المقريزى كل التراث المدون حول مصر وعاصمتها القاهرة تاريخا، وجغرافية ، وأساطير ومأثورات شعبية ومعلومات عن المدن والسكان والأعياد والأديان والأقليات ، فضلا عن أخبار

---

(١٩) انظر فى هذا الموضوع : محمد رجب النجار « مصادر المأثورات الشعبية » وهى دراسة تقع فى ٦٦ صفحة من الحجم العادى ولم تنشر حتى الآن ، وقد تفضل بإهدائها لى وأفدت منها الكثير فى هذه الدراسة على الرغم من انها تفتح شهية الباحثين لمزيد من البحث اكثر مما تقدم لهم من إجابات .

(٢٠) اعتمدنا فى هذه الدراسة على طبعة دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) وهى طبعة مصورة بالأوفست عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ

المؤسســات ذات الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتعليمية من أسواق وفنادق وخانات ووكالات ومساجد وجوامع وخوانق وزوايا ومكاتب تعليم الأطفال وسجون ومتنزهات وبيمارستانات وكنائس وأديرة ومعابد يهودية .. وغيرها . وفي ثنايا هذه الأخبار نجد الكثير من «الموروث الشعبى» بكل اتجاهاته.

ويقول المقريزى عن سبب تأليف هذا الكتاب (٢١) «وكانت مصر هى مسقط رأسي وملعب أترابى ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وحامتى وموطن خاصتى وعامتى .... أرغب فى معرفة أخبارها وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها وأهوى مسائلة الكبار عن سكان ديارها فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قل مايجمعها كتاب أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب .... فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية...

والحقيقة أن المقريزى قد أوفى وعده فضم كتابه كل ما كان متاحاً من مادة تاريخية فولكلورية عن مصر وسكانها ومدنها وقراها ومعالمها الجغرافية. ومن المهم أن نشير فى هذه النقطة إلى أن المقريزى قد جعل مادة كتاب «الخطط» أساسا لكل مؤلفاته الكبيرة التى ألفها أثناء جمع مادة هذا الكتاب الفذ (٢٢) ومن أهم هذه المؤلفات ماألفه فى التاريخ العام مثل

---

(٢١) الخطط المقريزية ، جـ١ ،ص٢ - ص٣ .

(٢٢) محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (ط. ثانية ، القاهرة ١٩٥٤)، ص١٣؛ سعيد عاشور ، « أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته » عالم الفكر ، المجلد الرابع عشر - المجلد الثانى ، يوليو - سبتمبر ١٩٨٣) ص١٧٥ - ص١٧٧ .

«الخبرعن البشر» ،«الدرالمضية فى تاريخ الدول الاسلامية» وكتب التراجم مثل «المقفى الكبير» «ودرر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة» فضلا عن مؤلفاته فى تاريخ مصر وهى «عقد جواهر الأسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط» «إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء» «السلوك لمعرفة دول الملوك» إلى جانب عدد كبير من الرسائل ذات الموضوع الواحد وهى كتب صغيرة الحجم تخصص كل منها فى موضوع بعينه.

وقد ألف المقريزى هذه الكتب أثناء جمعه لمادة كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار »مما يدلنا على مدى ضخامة الجهد الذى بذله من ناحية والكم الهائل من المعلومات والقصص والأشعار والأساطير والخرافات التى جمعها من ناحية أخرى . ولا يخلو كتاب من كتب المقريزى من عناصر متنوعة من المأثور الشعبى. بيد أن كتاب الخطط أستأثر بالنصيب الأكبر من هذه العناصر بطبيعة الحال . ويمكننا أن نضع تقسيما أوليا للمادة التراثية فى خطط المقريزى على النحو التالى :

١ ـ الأساطير والحكايات المرتبطة بأصل اسم مصر وأصول المصريين أنفسهم

٢ـ المادة الفولكلورية التى تدور حول«فضائل مصر»

٣ـ التراث المتعلق بالعجائب الموجودة على أرض مصر

٤ـ الأساطير والحكايات التى تناولت الحضارة المصرية القديمة وإنجازاتها

٥ـ قصص وحكايات الدفائن كانت بعضها قصصا حقيقية واخرى خيالية.

٦ـ الأساطير المرتبطة بالنيل

٧ـ أساطير أصول المدن المصرية

٨ـ الموروث الشعبى المتعلق بالحياة اليومية

وسوف نحاول أن تقدم بعضا من نماذج الموروث الشعبى الذى أورده المقريزى فى خططه:

فبعد أن يحدد المقريزى موقع مصر وفقا للمفاهيم الجغرافية آنذاك تحت عنوان «ذكر محل مصر من الأرض وموضعها من الأقسام السبعة» «ذكر حدود مصر وجهاتها (٢٣) نجده يذكر بعض الأساطير حول البحر الأحمر والبحر المتوسط وعن البحر الأحمر الذى يسميه «بحر القلزم» يقول مؤرخنا « .. ولما كانت أرض مصر منحصرة بين بحرين هما بحر القلزم من شرقيها وبحر الروم من شمالها وكان بحر القلزم داخلاً فى أرض مصر كما تقدم صار من شرط هذا الكتاب التعريف به..» (٢٤) ويذكر أنه فيما بين مدينة القلزم ومدينة أيله مكان يعرف بمدينة قاران وعندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدة اختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتى جبلين وهى بركة سعتها ستة أميال تعرف ببركة الفرندل يقال أن فرعون غرق فيها ويقال أن الغرندل إسم صنم كان قد وضع فى ذلك المكان

---

(٢٣) الخطط ، جـ١ ،ص١٤ – ص١٦ .

(٢٤) نفسه ، جـ١ ، ص١٦ – ص١٧ .

منذ زمن بعيد ليحبس من يخرج من أرض مصر مغاضبا للملك ،أو فارا منه. وعندما خرج موسى عليه السلام ببنى اسرائيل من مصر نزل تجاه هذا الصنم بناء على أوامر ربه ، وعندما عرف فرعون بهذا ظن أن الصنم قد حبس موسى وقومه من الخروج ، فلما طاردهم غرق بجنوده.

وعلى الرغم من الأصل الدينى لقصة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من مصر فإن الخيال الشعبى هنا ربط بين ظاهرة طبيعية وهى صعوبة الملاحة فى هذا الجزء من البحر الأحمر وبين خروج بنى اسرائيل من مصر . واللافت للنظر هنا أن سبب هذه الظاهرة الطبيعية واضح ومعروف كما أشار اليه المقريزى وهو « شدة أختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتى جبلين » ومع ذلك ترك الخيال بصمته على قصة هذه المنطقة التى ارتبطت بقصة دينية إعجازية .

أما البحر المتوسط ، أو البحر الرومى ، فإنه يمثل حدود مصر الشمالية. ويذكر المقريزى أن ثمة حكاية تدور عن «اسكندر الجبار حفر وأجراه من البحر المحيط الغربى» وذلك لكى يفصل بين البربر والأسبان الذين كانوا يشنون الغارات على بعضهم البعض(٢٥) ولكن المقريزى لا يقتنع بهذه الرواية لأن « أخبار هذا البحر وكونه بساحل مصر لم يزل ذكره فى الدهر الأول قبل اسكندر بزمان طويل..» ويتضح هنا أن غياب

(٢٥) نفسه ، جـ١ ، ص١٧

المعلومات التى تتناول نشأة البحار كانت سببا فى ذيوع مثل ذلك الروايات الخرافية لدرجة أن مؤرخنا نفسه لم يجد مايعارض به هذه الرواية سوي بقوله «فأما أن يكون ذلك قد كان فى أول الدهر مما عمله بعض الأوائل وأما أن يكون خبرا واهيا» ويحكى قصة خرافية أخرى مؤداها أن بعض أصحاب السير من الفلاسفة ذكروا «.. أن مابين الاسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت فيها الجميز وكانت مسكونة وخمة وكان أهلها من اليونانية وأن الاسكندر خرق إليها البر فغلب على تلك الارض وكان بها فيما يزعمون الطائر الذى يقال له وقنس وهو طائر حسن الصوت وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته مايميت السامع وأنه يدركه قبل موته طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح ..» (٢٦) وتستمر الحكاية لتقول أن واحدا من الفلاسفة أراد أن يتوصل لسماع صوته بالحيلة ، كما تحكى عن أن ماء البحر كان سببا فى هلاك هذا الطائر الأسطورى .

وربما كانت شهرة الاسكندر الكبير وفتوحاته العريضة وراء ذلك العدد الكبير من الأساطير والحكايات الخراقية التى ذاعت حوله فى عالم البحر

(٢٦) نفسه ، جـ١ ،ص١٨ . ومن الجدير بالذكر أن هناك ، فى عصرنا الحديث ، نظريات عديدة تتناول موضوع نشأة البحار والمحيطات . عن هذا الموضوع انظر : جودة حسنين جودة ، جغرافية البحار والمحيطات (دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨١) ، ص ٦٥ – ص١٠٢ حيث يعرض ثمانى نظريات حول هذا الموضوع

المتوسط ومصر من بلدانه بطبيعة الحال . إذ أننا سنجد قدرا كبيرا من الأعمال المنسوبة إلى الاسكندر كما سنرى فى سياق هذه الدراسة .

وكان من الطبيعى أن تحظى مصر نفسها بقدر أوفر من الأساطير والحكايات الخيالية التى دارت حول أصل التسمية وأصل المصريين أنفسهم. وقد جمعها المقريزى تحت عنوان«ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعددأسمائها »(٢٧) وقد بدأ بذكر أن اسمها كان فى الدهر الأول قبل الطوفان «جزله» ثم سميت مصر . وقد أورد عدة قصص تنسب كل منها إسم مصر إلى جنس من الأجناس التى كانت على صلة بالمصريين طوال تاريخهم الطويل.

فالرواية الأولى تقول إن إسم مصر مشتق من مصر بن حام وهو مصريم ، قيل إنه ابن بنصر بن هرمس بن هردوش بن بيطون بن روى بن ليطى بن يونان وبه سميت مصر فهى مقدونية.

هذه الرواية تحاول نسبة المصريين ومصر إلى اليونانيين عن طريق إختلاق أسطورة يختلط فيها نسب أولاد حام بن نوح بنسب الاغريق عن طريق هرمس الذى جعلوه جد الاسكندر . والواضح هنا اختلاط التيارات الثقافية والحضارية بين كل من مصر القديمة وبلاد الأغريق القديمة وربما كانت هذه الرواية صدى لتلك الأسطورة التى نسجها الكهنة بعد فتح الاسكندر المقدونى لمصر، عندما ذهب إلى معبد الآله آمون فى واحة

(٢٧) الخطط ، جـ١ ، ص١٨ - ص٢٣ .

سيوة وأذاع الكهنة أنه إبن الاله آمون . ومن المهم أن نشير فى هذا المقام إلى أن هرمس هو المعادل الأغريقى للاله «تحوت» «توت» رب الحكمة عند قدماء المصريين .(٢٨) وقد ربط الكتاب العرب بينه وبين النبى إدريس . وربما يكون ذلك ناتجا عن صفات العلم والحكمة التى ارتبطت فى التراث الشعبى بهذا الاله المصرى القديم ونظيره الإغريقى وعندما جاء الاسلام بالتوحيد حاول الكتاب والرواة أن ينسبوا هذه الصفات إلى النبى ادريس بأن جعلوه أحيانا هو هرمس.

أما الرواية الثانية : فتقول «أن بنى آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار بن مصرايم بن مركابيل بن دوابيل بن عرباب بن آدم عليه السلام فى نيف وسبعين راكبا من بنى عرباب جبابرة كلهم يطلبون موضعا من الأرض يقطنون فيه فرارا من بنى أبيهم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل فأطالوا المشى عليه

(٢٨) تقول إحدى الأساطير المصرية القديمة أن «توت» خرج من رأس الإله «ست» بعد أن ابتلع «ست» منى حورس بطريق الخطأ . ونتيجة لإرتباط « توت» بالقمر صار اله الوقت و«حاسب الزمن» ويوصفه الرب الذى اخترع الكتابة فكان حاميا للكتبة أيضا وكان «توت» يوصف بانه لسان رع أو قلبه وبوصفه حاميا لأوزوريس صار معيناً للموتى أيضا . ولهذه الصفات جميعا قال الإغريق إنه «هرمس» إله الحكمة لديهم . انظر : Manfred Lurker, The Gods and Symbols in Ancient Egypt An Illustrated Dictionory, (Thomas and Hudson, London 1980), Art. Thaut, p.121.

وعن التأثير المصرى فى العقائد والحضارة الأغريقية انظر : لطفى عبد الوهاب ، دراسات فى العصر الهلنستى (النهضة العربية - بيروت ١٩٨٨م) ص٩ - ص١١ .

فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه أعجبهم وقالوا هذه بلد زرع وعمارة فاقطنوا فيه ، استوطنوا وبنوا فيه الأبنية المحكمة والصنائع العجيبة وبنى نقرواس مصر وسماها باسم أبيه مصريم ، وكان نقراوس جبارا له قوة وكان مع ذلك عالما وله ائتمر الجن.. » وتمضى القصة لتقول أنه بفضل العلوم التى عرفها قهر الجبابرة الذين كانوا قبله وبنى مدينة « أمسوس » وزرع أتباعه الأرض وبنوا المدائن ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم « ..ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى إنما كان ينبطح ويتفرق فى الأرض حتى يتوجه إلى النوبة فهندسوه وساقوا منه أنهارا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها وساقوا منه نهرا إلى مدينتهم امسوس.. »

تمضى هذه الرواية لتقول أن مصر سميت بعد الطوفان بمصر بن بنصر بن حام بن نوح . وقصة هذه التسمية الثانية تحكى أن قليمون الكاهن خرج من مصر وآمن بنوح هو وأهله وتلامذته وركب معه السفينة قبل الطوفان ثم زوج ابنته من بنصر بن حام بن نوح فلما خرج نوح من السفينة قسم الأرض بين أولاده . فى تلك الأثناء كانت إبنة الكاهن المصرى قليمون قد أنجبت مصرايم فطلب قليمون من نوح أن يرسله معه إلى مصر لكى يطلعه على علومه ويظهره على كنوزه . ثم حدث أن أقام أهل مصر هذا الشاب مصرايم ملكا عليهم فسماها باسمه ويقال أنه غرس الأشجار بيده وكانت ثمارها هائلة الحجم « .. بحيث يشق الأترجة نصفين فيحمل على البعير نصفها وكان القثاء فى طول أربعة عشر

شبرا . . » وكان أول من صنع السفن في النيل ويقال إنه نكح إمرأة من بنات الكهنة فولدت له أربعة أولاد هم : قبطيم وأشمون وأتريب وصا ، فكثروا وعمروا الأرض وبنوا مدينة «منف» ثم كشف أصحاب قليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم (٢٩).

هذه الرواية تحاول أن تقول أن مصر والمصريين من أصل حامى مختلط بأصول مصرية قديمة . واللافت للنظر فى هذه الحكاية إنها تتحدث عن وجود مصرى مستقل قبل الطوفان ينحدر من نسل «مصرايم» (الأول) ثم تأكدت التسمية مرة أخرى من خلال زواج إبنة الكاهن لابن حام الذى أنجب مصرايم (الثانى) . وهنا نجد التأكيد على أن الكهنة كانوا هم العارفين بالعلوم وأسرارها فى مصر القديمة وهو مايعكس صدى لبعض الحقائق التاريخية . إذ لم يكن كهنة مصر القديمة مجرد «إكليروس» دينى وإنما كانوا هم الفئة التى حفظت العلم وتناقلته كما كان دورهم غاية فى الأهمية فى العديد من جوانب الحياة فى مصر القديمة . ومن ناحية أخرى يلفت النظر هنا تأثير فكرة الأنساب العربية فى نسبة كل شعب إلى جد أعلى أسطورى يفسرون به معنى الاسم إذ تذكر الرواية أن «مصرايم» أنجب أربعة أبناء هم قبطيم واشمون وأتريب وصا والمعروف أن الأسماء الثلاثة الأخيرة أسماء لمدن

---

(٢٩) الخطط ، جـ١ – ص١٨ – ص١٩

مصرية (٣٠) كما أن ماتحكيه الرواية من أن مصرايم عهد بالحكم إلى ابنه قبطيم عندما حان أجله يحاول أن يقول أن هذا هو أصل تسمية سكان مصر «القبط» أو الأقباط . والمعروف أن هذا الإسم مشتق من الاسم المصرى القديم «جبت» والذى حرفه اليونانيون القدماء إلى AEGYPTUS ومنه خرج الإسم Egypt فى الأنجليزية ، و L'gypte فى الفرنسية وما يشبه ذلك فى اللغات الأوروبية الأخرى .

وتقول الرواية الثالثة: أن سبأ الأكبر أو حمير وكهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن وجمع بنى قحطان وبنى هود ثم سار بهم إلى أرض بابل ففتحها حتى بلغ أرض أرمينية وملك أرض بنى يافث بن نوح وبنى قنطرةعلى البحر عبر منها إلى بلاد الشام التى استولى عليها ثم سار حتى نزل على النيل «وجمع أهل مشورته وقال لهم : انى رأيت أن أبنى مصرا إلى حد بين هذين البحرين ؛ يعنى بحر الروم وبحر القلزم (٣١) فيكون فاصلا بين الشرق والغرب » فوافقوه ثم بنى مدينة أسماها

---

(٣٠) تحدث المقريزى فى خططه (جـ١ ، ص١٧٥ - ص١٧٦) عن أتريب وقال إنها بالوجه البحرى وعدد قراها مائة وثمانى قرى . وذكر أن الذى بناها أتريب بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح . وقال عن مدينة صا إن إنها اكتسبت أسمها من « صا » بن قبطيم بن مصرايم . وكانت موقع البحيرة حاليا قبل بناء الاسكندرية ، وكانت خرابها وأطلالها باقية فى أخريات القرن الثامن الهجرى (١٤م) (الخطط جـ١، ص١٨٢) .

(٣١) البحر المتوسط والبحر الاحمر .

«مصر» وولى عليها إبنه «بابليون» وعاد لليمن حيث بنى سد مأرب . ومات عن عمر يناهزخمسمائة سنة . وملك بعده إبنه حمير وعندما ثار بنو حام بن نوح على « بابليون » وأرادو تخريب مصر استنجد بأخيه حمير الذى قدم إلى مصر حيث «أقام مائة سنة يبنى المدائن» وعندما مات بابليون ولى بعده إبنه أمرىء القيس(٣٢).

هكذا ، إذن ، نجد فى هذه الروايات الثلاث ثلاثة اتجاهات فى نسبة اسم مصر وأهلها : أولها اتجاه حامى ينسبهم إلى نسل حام بن نوح وثانيها اتجاه يونانى يعكس العلاقات الحضارية بين مصر القديمة وبلاد الأغريق ويحاول نسبة مصر والمصريين إلى أصول إغريقية وثالث هذه الاتجاهات عربى يحاول نسبة مصر إلى أصول عربية يمينة . وهذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة فى نسبة كل قبيلة أو شعب أو مدينة إلى جد أعلى . ويلفت النظر هنا استخدام هذه الرواية لاسم «بابليون» (وهو اسم الحصن الذى كانت تقيم به الحامية البيزنطية التى حاصرها جيش عمرو بن العاص فى خضم أحداث فتح مصر) باعتباره إسما لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الاكبر .

بيد أن الروايات التى تناولت أصل مصر والمصريين لم تخل بشكل أو بآخر من تأثير الاسرائيليات التى كانت تعكس التفسير التوارتى لأصول شعوب المنطقة والتى كانت بدورها نابعة من التراث الثقافى

(٣٢) الخطط ، جـ١ ، ص٢٠

والأسطورى لهذه المنطقة ذاتها (٣٣) وينعكس هذا التأثير فى رواية أوردها المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم ونقلها عنه المقريزى (٣٤) وتحكى هذه الرواية أنه كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد هم سام وحام ويافث ويخطون . وطلب نوح من الله أن يرزقه فى ولده وذريته حين تكاملوا بأن يستجيب لدعائه فيهم ، فوعده ذلك ونادى نوح أولاده وهم نيام وقت السحر وكان سام أول من دعاه أبوه فأجابه يسعى وحضر من أبنائه «أرفخشد» وسأل نوح الله أن يبارك فى سام أفضل البركة وأن يجعل الملك والنبوة فى نسل أرفخشد . ثم نادى نوح إبنه حام فلم يجبه ولم يقم إليه هو ولا وأحد من أبنائه ، فدعا نوح الله أن يجعل أولاد حام أذلاء وأن يجعلهم عبيداً لأولاد سام . وكان مصر بن بنصر بن حام نائما إلى جنب جده فلما سمع دعاء نوح على جده وأبيه قام يسعى إلى نوح « .. وقال ياجدى قد أجبتك إذ لم يجبك جدى ولا أحد من ولده ، فاجعل لى دعوة من دعائك ففرح نوح ووضع يده على رأسه وقال اللهم أنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد التى نهرها أفضل أنهار الدنيا واجعل فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها.. »

(٣٣) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص٢١ ، ص٢٣ - ص٥٠ ، ص١١٩ - ص١٢٠ .

(٣٤) الخطط ، جـ١، ص٢٠ - ص٢١

وتمضى الرواية لتقول أن نوحا دعا على أبناء يافث بأن يجعلهم الله شرار الخلق ...ومايهمنا هنا أن هذه القصة بنزوعها العنصرى تجعل أبناء سام أفضل الخلق بالقدر الذى يعكس فكرة الاختيار اليهودية التى تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار. بيد أن الصيغة المصرية لهذه الرواية الخيالية استثنت المصريين من الذل الذى كتبه الله على أبناء حام بسبب إجابة مصر بن بنصر بن حام لدعوة جده نوح . هذا الجزء الخاص بأرض مصر ونيلها وخيراتها يعكس تأثير الرواة المحليين الذين استثنوا مصر والمصريين من الذل الذى كتب على أبناء حام وفقا للقصة العبرانية.

هذه هى الخطوط العريضة للأساطير والحكايات الشعبية التى جمعها المقريزى فى خططه عن أصل تسمية مصر والمصريين . وبغض النظر عن الجوانب التاريخية لهذا الموضوع فإن مايهمنا هنا هو الدلالة التى تحملها هذه الحكايات الخيالية عن إعتزاز المصريين ببلادهم وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين تأكيداً لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين تحت تأثير التراث الثقافى السائد بتأثيراته المختلفة ، أو العرب بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها فى رحاب الإسلام والعروبة . ومن الواضح هنا أن كلاً من هذه الاتجاهات الثلاثة فى «الموروث الشعبى » كان يرضى حاجة ثقافية / إجتماعية لشرائح بعينها فى المجتمع المصرى آنذاك . فقد كانت مصر تضم العرب والمتعربين كما بقى بها الأقباط النصارى الذين يتفاخرون كثيرا بأصولهم

المصرية القديمة ، فضلاً عن البعض من ذوى الأصول اليونانية . وعلى الرغم من أن هؤلاء وأولئك ذابوا فى شعب واحد له خصائصه الثقافية الواحدة فإن هذه الروافد الثقافية كانت فعالة للغاية فى القرون الأولى بعد الفتح الإسلامى لمصر ، وهو ماتعكسه الروايات التى نقلها المقريزى عن المصادر الباكرة مثل عبد الرحمن بن عبد الحكم والمسعودى وغيرهما ممن كتبوا عن مصر وفضائلها اعتمادا على الموروث الشفوى والمكتوب الذى كان سائدا فى أوساط المصريين آنذاك.

نأتى إلى مناقشة الموروث الشعبى المتعلق «بفضائل مصر» وهنا نجد أن الكلام عن فضائل البلدان كان نوعا من التأليف جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبى ، فضلاً عن الأدب والدين . وقد نشأ هذا النوع من التأليف نتيجة الحيوية التى إتسمت بها الثقافة العربية الإسلامية بعد القرن الثالث الهجرى (٩م) عندما كانت إفرازات التفاعل بين ماجاء به الإسلام واللغة العربية والموروثات الثقافية المحلية فى كل مصر من أمصار دار الإسلام قد نضجت بالقدر الذى جعل لكل بلد شخصيتها الثقافية المتمايزة داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية كلها . وقد كانت أهم «فضائل مصر» أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة ، تارة بصريح الذكر وتارة إيماء على حد تعبير المقريزى.

ومايهمنا هنا هو «الموروث الشعبى» الذى يدور حول «فضائل مصر»

وهنا نجد قصصاً كثيرة تدور حول تفسير الآيات القرآنية الكريمة التى ورد فيها ذكر مصر (٣٦) كما يحكى المقريزى أن السحرة من أهل مصر آمنوا جميعا فى ساعة واحدة « ويقال إنهم كانوا إثنى عشر ساحرا روساء تحت يد كل أحد منهم عشرون عريفا ، تحت يد كل عريف منهم ألف من السحرة ، فكان جميع السحرة مائتى وأربعين ألفا ومائتين وأثنين خمسين إنسانا .. » وقد حسب الأقدمون ذلك من فضائل مصر .

وقد تصور الكتاب العرب أن الدنيا خلقت على خمس صور «على صور الطير برأسه وصدره وجناحيه وذنبه : فالرأس مكة والمدينة واليمن. والصدر الشام ومصر . والجناح الأيمن العراق ، وخلف العراق أمة يقال لها واق، وخلف واق أمة يقال لها واق واق وخلف ذلك من الأمم مالا يعمله الا الله عز وجل . والجناح الأيسر السند ، وخلف السند الهند وخلف الهند أمة يقال لها ناسك وخلف ناسك أمة يقال لها منسك وخلف ذلك من الأمم مالا يعلمه الا الله عزو جل. والذنب من ذات الحمام الى مغرب الشمس ، وشر مافى الطير الذنب.. »

هذا التصور الساذج لشكل الأرض يشى بقصور المعلومات الجغرافية فى ذلك الحين عن الأرض ، وعلى الرغم من وجود كثير من الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين وتراثهم الذى ساهم فى تقدم علم الجغرافيا فإن الأساطير والحكايات الخرافية غطت المناطق المجهولة التى لم تستطع

(٣٦) الخطط ، جـ١ ، ص٢٣ .

جهود الناس آنذاك اكتشافها . بيد أن مايهمنا أن تصور موقع مصر فى صدر ذلك الطائر دلالة على إحساس أهلها ومن عاصرهم بأهمية بلادهم.

وهناك قصة أخرى عن "فضائل مصر "مؤداها أنه لما خلق الله آدم مثل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها ، وبنا ءها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ،ومن يملكها من الملوك فلما رأى مصر أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسواً نوراً لا يخلو من نظر الرب اليه بالرحمة فى سفحه أشجار مثمرة وفروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة فدعا آدم فى النيل بالبركة ودعا فى أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك فى نيلها وجبلها سبع مرات »(٣٧) . هذه القصة التى اتخذت شكلا إسلاميا تعكس بالضرورة أصداء اعتقاد المصريين بان خيرات بلادهم كانت خيرا إلهيا اختصهم به الله .ومن اللافت للمنظر أن هذه كانت أيضا نظرة المصريين القدماء. ويبدو أن حضارة المصريين القدماء ، بآثارها المادية والثقافية الباقية ، كانت تعد من بين تلك «الفضائل» التى فاخر بها المصريون غيرهم من أبناء البلاد الاسلامية الأخرى . فقد أورد المقريزى رواية نقلها عن صاعد اللغوى فى كتاب« طبقات الأمم» تقول إن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد

---

(٣٧) الخطط ، جـ١ ، ص٢٦ - ص٢٧ .

مصر (٣٨) ويحكى أنه أول من آنذر بالطوفان ، وخاف من ضياع العلم والصنائع فبنى الأهرام والبرابى التى فى صعيد مصر الأعلى وصور فيها جميع الصنائع والآلات ، ورسم فيها صفات العلوم حرصا على تخليدها لمن بعده ، وهرمس هذا هو إدريس عليه السلام»(٣٩)

وتكشف هذه الرواية عن أن الخيال لعب دورا كبيرا فى تفسير مالم يكن ممكنا تفسيره بشكل علمى آنذاك ، فالأهرام والبرابى (أى المعابد المصرية القديمة) التى وقفت شامخة عبر العصور حملت أسرارها داخلها حتى استطاع علم المصريات Egyptology أن يفك رموزها بعد نجاح العالم الفرنسى شمبليون فى حل غموض اللغة المصرية القديمة وأسرارها . ودار الخيال الشعبى حول الأهرام والبرابى فتصورها مخازن بناها هرمس أو إدريس (وهو الصورة العربية لهرمس اليونانى، الذى هو صورة إغريقية لتوت إله الحكمة المصرى القديم) لكى يحفظ فيها أسرار العلم من الضياع فى الطوفان.

---

(٣٨) انظر ما سبق عن هرمس والعلاقة بينه وبين الإله المصرى القديم توت ،، حاشية رقم ٢٨ فى هذه الدراسة .وهرمس فى الأساطير اليونانية،هو رسول آلهة الأوليمب كما كان إله الطرق ومرشد المسافرين ، وربا للاتصالات والتجارة ، والتجارة ، كما اعتبره الاغريق إله للخصوبة مانحا للثروة وموزع الحظوظ . وهو ابن الإله زيوس من مايا ولد فى الصباح . انظر : Maria Leach (ed.), Standard Dictionary of Folklore, art. Hermes, pp.493-494.

(٣٩) الخطط ، جـ١ ، ص٢٧ - ص٢٨ .

بيد أن هذه الحكايات ، وغيرها من الحكايات التى دارت عن تاريخ مصر الفرعونية ، تشى بمدى إعجاب أصحاب هذه الحكايات وجمهورهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة التى بقيت رغم عوادى الزمن . ويقودنا هذا إلى الحديث عن « الموروث الشعبي » الذى جمعه المقريزى حول «العجائب» التى كانت بمصر(٤٠) والقصص التى تدور حول هذا الموضوع كثيرة ، ولكنها تشترك جميعا فى صفة واحدة هى المبالغة التى تعكس الانبهار بالحضارة المصرية القديمة ، والتى تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق.

يبدأ المقريزى حكاياته بنقل عن القضاعى يقول أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها بسائر الدنيا عشر ومنها بمصر عشرون أعجوبة منها الأهرام ، ومن أطرف الحكايات التى تنسب إلى قدماء المصريين قدرات خارقة ماينسب إلى « منقاوس الملك » ومؤداه أنه عمل بيتا تدور به التماثيل بجميع العلل ، وكتب على رأس كل تمثال مايصلح من العلاج فانتفع بها الناس زمانا إلى أن افسدها بعض الملوك وعمل صورة إمرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا زال همه ونسيه، فكان الناس يتناوبونها ويطوفون حولها ثم عبدوها من جملة ماعبد بعد ذلك . وعمل تمثالا من صفر مذهب بجناحين لا يمر به زان أو زانية إلا كشف عورته بيده .وكان الناس يمتحنون به الزناة فامتنعوا من الزنا خوفا منه . ثم حدث أن تحايلت

(٤٠) نفسه ، جدا ، ص٣٠ – ص٤٠

إحدى الجوارى على الملك لينتزع التمثال من مكانه حتى تتمكن من لقاء عشيقها وتم لها ماأرادت .

وثمة قصة أخرى عن ملك آخر هو مناوس بن منقاوس تقول أنه بنى فى صحراء الغرب مدينة ، بالقرب من مدينة السحرة، بقنطرة ذات عجائب بوسطها قبة كالسحابة تمطر مطرا خفيفا فى الشتاء والصيف وتحت القبة مطهرة بها ماء أخضر يداوى من كل الأمراض وفى شرقيها معبد بأربعة أبواب على كل منها وجهان متقابلان يخاطب كل منهما صاحبه بما حدث فى يومه ، فمن دخل المعبد على غير طهارة نفخا فى وجهه فأصابته رعدة لا تفارقه حتى يموت . وفى وسط هذا المعبد مهبط من النور إذا عانقه إنسان تكشفت له أسرار الروحانية ، وسمع كلامهم ورأى مايعلمون.

هذه القصة ،مثل قصص أخرى أوردها المقريزى فى هذا السياق ، تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة من ناحية كما تكشف عن عجزهم عن الوقوف على تاريخها الحقيقى من ناحية أخرى. كما أن بناءها الفنى يفوح بأريج حكايات شعبية تشبه حكايات ألف ليلة وليلة وعالمها السحرى .وفى رأى بعض الباحثين أن هذه الحكايات تهدف أساسا إلى التسلية على الرغم من أنها تهدف إلى تحقيق غرض ثانوى آخر وأنها محض خيال اختلقه الرواه (٤١) وفى تقديرنا أن هذه

(٤١) Linda Degh, "Folk Narrative.",p.60

الحكايات التى أوردها المقريزى لم تكن بقصد التسلية وإنما كانت ترغب فى تقديم إجابات «تاريخية » عن حضارة تليدة مضت ولكن آثارها مازالت ماثلة أمام عيون الناس وعندما عجز المتعلمون عن العثور على إجابات تاريخية حقيقية بدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال .بيد أن بعض هذه الحكايات عن أمجاد مصر القديمة كانت تحمل ظلا ، أو نواة من الحقيقة التاريخية فى غالب الأحوال.

أما القصص والحكايات التى دارت فى المجتمع المصرى عن كنوز قدماء المصريين التى كانت مخبأة فى مقابرهم ومعابدهم - والتى ماتزال تكتشف كل حين إلى الآن : فقد كان بعضها حقيقيا ، على حين حمل البعض الآخر رائحة المبالغة . وقد أوردها تقى الدين المقريزى تحت عنوان «ذكر الدفائن والكنوز التى تسميها أهل مصر المطالب»(٤٢) وهى تسمية تكشف على أية حال عن أن هذا الموضوع كان يشغل الناس فترة طويلة من الزمان .

يبدأ مؤرخنا بالقول «وبمصر كنوز يوسف عليه السلام ، وكنوز الملوك من قبله ، والملوك من بعده .لأنه كان يكنز مايفضل عن النفقات والمؤن لنوائب الدهر...» ثم يحكى ماسمعه من أنه يقال أن علم الكنوز فى كنيسة القسطنطنية «...ويقال إن الروم لما خرجت من مصر خبأوا كثيرا من أموالهم فى مواضع أعدوها لذلك وكتبوا كتبا بأماكنها وكيفية

(٤٢) الخطط ، جـ١ ، ص٤٠ - ص٤٢ .

الوصـول إليـهـا وأودعت هذه الكتب فى القسـطنطينيـة . ويذكـر رواية أخرى تقول أن الروم لم يكتبوا شيئا ، وإنما ظفروا بالكتب التى دونها من ملك مصر قبلهم من اليونانيين والكلدانيين والقبط .

هذه المحاولة لتفسـيـر أسباب وجود الكنوز والدفائن بأرض مصر تكشف عن أن هذا الموضوع كان مراحا للخيال ، وهو أمر طبيعى فى ضوء الحقيقة القائلة أن السبب الحقيقى (هو متعلق بعقيدة المصريين القدماء فى الموت والحياة الأخرى وطقوس الدفن لديهم) لم يتم اكتشافه سوى منذ فترة قصيرة نسبيا .

على أية حال يورد لنا المقريزى عددا من القصص ، وبعضها يبدو حقيقيا والبعض الآخر خيالى ، حول الكنوز والدفائن والسعى الدائب لاكتشافها والحصول عليها . تقول القصة الأولى أنه عندما كان عبد العزيز بن مروان واليا على مصر فى خلافة أخيه عبد الملك بن مروان ، جاءه رجل وقال له بالمقبرة الفلانية كنز عظيم وقدم الدليل على صدق كلامه فأمر عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال وبدأت تظهر تحت الحفر بلاطات من رخام ومرمر إلى أن ظهر عمود من الذهب على أعلاه ديك عيناه ياقوتان تساويان ملك الدنيا وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد ورأسه على صفائح من الذهب . وعند الحفر لمع الياقوت فى عينيه لمعانا شديدا ثم ظهرت من الحفر تماثيل من الذهب وعندما ذهب عبد العزيز بن مروان ليستطلع الأمر نزل أحد الرجال وبسرعة ظهر سيفان عن يمين الدرج وشماله فالتقيا على الرجل حتى قطعاه وهوى جسمه إلى أسفل وعندما ارتطم بالأرض اهتز العمود

وصفر الديك وحرك جناحيه فمادت الحفرة بالعمال وكانوا حوالى ألف رجل فهلكوا جميعا فأدرك الوالى استحالة حصوله على هذا الكنز فأمر بردم المكان على جثث الرجال فصار قبراً لهم (٤٣).

هذه القصة الخيالية ربما كانت تحمل ظلاً من الحقيقة مثل إنهيار الحفر أو سقوط بعض العمال داخل إحدى مقابر قدماء المصريين التى أعتادوا نحتها فى أعماق بعيدة تحت سطح الأرض مثل مقابر وادى الملوك على الضفة الغربية للنيل بمدينة الأقصر ، أو ربما حدثت بعض الإصابات ثم حولتها مبالغات الرواية الشفوية إلى هذا النمط من القصة التى تتميز بالحبكة الفنية على الرغم من أن بطلها الأساسى شخص تاريخى حقيقى هو عبد العزيز بن مروان أحد ولاة مصر فى العصر الأموى . وعلى أية حال فإن علماء الآثار المصرية الأجانب روجوا خلال القرن الماضى وهذا القرن عددا من القصص حول ما أسموه «لعنة الفراعنة» .

وينقل المقريزى رواية أخرى عن المسعودي تقول أن شخصا أخبر محمد بن طفج الإخشيد عن موضع كنز على مقربة من أهرام الجيزة فأمر الإخشيد بحفر المكان. ولما أتموا الحفر وجدوا «حجارة مجوفة فى صخرة منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب قد طلى بالاطلية المانعة من سرعة البلاء وتفرق الأجزاء . والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والزبرجد والفيروز ، ومنها وجوهها ذهب وفضة » فكسر بعض تلك

(٤٣) الخطط ، جـ١ ، ص٤٠ – ص٤١

التماثيل فوجدوا في أجوافها رمما بالية ، وأجساما فانية والي جانب كل منها نوع من الأبنية كالبرابى وغيرها من المرمروالرخام وفيه من الطلى الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع في التماثيل الخشب . والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها . فجعل منه على النار شيء ففاح منه ريح طيبة مختلفة لاتعرف فى نوع من أنواع الطيب . وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة مافيه من الناس.. » وتستمر القصة لتقول أنهم وجدوا تماثيل من المرمر والرخام الأخضر للآلهة ، وعليها كتابة لم يعرفها أحد وزعم بعض أهل العلم أن «هؤلاء ليسوا بيهود أو نصارى » ثم يقول أن الحفر لم يؤد إلى العثور على شيء آخر غير هذا .

والواضح أن هذه قصة حقيقية عن اكتشاف مقبرة فرعونية بها المومياوات فى توابيتها ومعها تماثيل الآلهة المصرية القديمة . وهناك قصص أخرى كثيرة متشابهة حول اهتمام أهل مصر آنذاك بالبحث عن كنوز قدماء المصريين .

نأتى إلى الأساطير والحكايات الشعبية التى دارت حول نهر النيل. وربما لا يوجد نهر آخر ارتبطت به حياة شعب من الشعوب مثلما ارتبطت حياة المصريين بنهرهم العظيم . ومن المعروف أن مصر بمثابة واحة فيضية كبيرة تكونت فى الركن الشمالى الشرقى من قارة افريقيا بفضل نهر النيل . كما أن حياة ساكنيها ماتزال تعتمد منذ آلاف السنين على مياه

النهر نظراً لضآلة كمية الأمطار التى تسقط على مصر سنويا (٤٥)
لاغرو ، إذن، أن يهتم المصريون بالنيل غاية الاهتمام فى كل عصورهم.
وقد دارت حول النيل كثير من الأساطير والحكايات الشعبية بل تم
انتحال بعض الأحاديث ونسبتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم تتحدث
عن أن نهر النيل من أنهار الجنة . وقد جمع المقريزى قدراً كبيراً من
الموروث الشعبى المتعلق بهذا النهر (٤٦)

يبدأ المقريزى حديثه عن النيل تحت عنوان ذكر شيء من فضائل
النيل ويسرد عدداً من الأحاديث المنسوبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام
تقول أن نهر النيل من أنهار الجنة كما يورد أقوالا أخرى منسوبة إلى
عبد الله بن عمر مؤداها أن النيل سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين
المشرق والمغرب ؛ فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده
فتمده الأنهار بمائها . وثمة أقوال غيرها منسوبة إلى كعب الأحبار تدور
حول الموضوع نفسه فضلا عن حديث نقله عن ابن قتيبة فى كتاب غريب
الحديث يقول «نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات
وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ » وقد شبه النيل والفرات بالمؤمنين لأنهما
يفيضان على الأرض ويسقيان الشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤونة
وجعل دجلة وبلخ أشبه بالكفار لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا

(٤٥) عن قصة تطور نهر النيل وادى النيل من وجهة النظر المورفولوجية أنظر: محمد صفى الدين أبو العز ، مورفولوجية الأراضى المصرية ، (النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٧) ط. ثانية ، ص١٢٥ - ص١٤٣ ؛ محمد عوض ، نهر النيل ، القاهرة ١٩٤٧.

(٤٦) الخطط جـ١ ، ص٥٠ - ص٦٨ .

يسقيان إلا شيئا قليلا بتعب كثير(٤٧)

ومن الواضح أن الأحاديث المنسوبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام والأقوال المنسوبة إلى السلف تهدف إلى إضفاء نوع من القدسية على نهر النيل: فتارة هو من أنهار الجنة وتارة أخرى هو نهر مؤمن . وإذا اكتفينا بالقول أن هذه الأحاديث غير صحيحة لغفلنا عن المغزى الهام الذى جعل الرواة يختلقون مثل هذه الأحاديث ذلك أن النهر قوام حياة مصر والمصريين ومن ثم كان طبيعيا أن يكون محور اهتمامهم وقد عبده المصريون زمن الفراعنة فى صورة الإله حابى (٤٨). ولم يكن ممكنا أن يستمروا فى عبادة نهرهم المحبوب فى عصر التوحيد فتم اختلاق مثل هذه الأحاديث التى تشى بمكانة النيل فى نفوس ساكنى مصر وكانت جزءا من الموروث الشعبى الدائر حول هذا النهر . ومن ناحية أخرى كان إحساس المصريين بالنهر فى ذلك الزمان أكبر كثيراً من إحساس المصريين الحاليين وذلك لأن النهر العظيم الذى تم ترويضه الآن بالقناطر وخزان أسوان والسد العالى لم يعد يتحكم فى حياة المصريين مثلما كان فى الماضى . وقد إنعكس ذلك فى كتابات الجغرافيين والمؤرخين الذين كانوا يحرصون على تسجيل أخبار مياه النيل فى حولياتهم فى صدر

---

(٤٧) الخطط ، جـ١ ، ص٥٠ - ص٥١

(٤٨) هو إله النيل وقت الفيضان . وكان المصريون يعتقدون أنه يسكن كهفا كبيراً ينبع منه النيل - وكان الفيضان . السنوى يسمى « وصول حابى » . وقد صور حابى فى صورة رجل عار طويل الشعر . له ثديان كبيران متأرجحان . على رأسه مجموعة من البردى ويحمل مائدة قرابين عامرة
انظر: Manfred Lurker, The Gods and Symbols of Ancient Egypt, Art. Hapi, p. 56.

مايسجلونه من أخبار (٤٩) وقدكان طبيعيا أن يسجل الموروث الشعبى مشاعر أهل مصر حول نهرهم العظيم . ولم يقتصر الأمر على هذه الأحاديث بطبيعة الحال وإنما شمل كافة عناصر الموروث الشعبى ويحسن بنا أن نلقى نظرة على هذا الموضوع .

كانت خصائص النيل الجغرافية لا سيما مايتعلق منها بمنابع النهر التى لم يتم اكتشافها سوى فى عصر محمد على من أهم مجالات الأساطير والقصص والحكايات الشعبية الحبلى . بالخيال وقد جمع المقريزى هذه القصص والأساطير من مصادرها الشفوية والمكتوبة تحت عنوان «ذكر مخرج النيل وانبعاثه» وقد بدأ بتصور خرافى عن شكل الأرض وفقا للمعلومات المتاحة آنذاك، وهي معلومات جمعت بين الحقائق والخيال ، إلى أن وصل إلى القول بأن نهر النيل يخرج من جبل القمر « وبه أحجار براقة كالفضة تتلألأ تسمى ضحكة الباهت كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت ويسمى مغناطيس الناس» . ثم تحدث عن منطقة تسمى اسيفى أهلها كالوحوش ومنطقة جبلية أخرى إسمها جبل وحشية به سباع لها قرون طوال لا تطاق . ويستمر فى وصفه الخيالى لمنطقة منابع النيل وروافده ، ويذكر منطقة تسمى جبل سودان يقول أن بها قوم يقال لهم «غنم» يأكلون الناس(٥٠).

---

(٤٩) أنظر على سبيل المثال : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردي ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، والدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر لأبن أيبك .

(٥٠) من المثير أن العامة من أهل مصر ما يزالون يتحدثون - حتى الآن - عن بلاد غنم هذه التى يأكل أهلها لحوم البشر"

ثم ينقل لنا المقريزى أسطورة عن منابع نهر النيل ملخصها أن نهر النيل كان يتبدد على وجه الأرض فلما قدم نقراوش بن مصرايم بن مركابيل بن دوابيل بن آدم إلى أرض مصر حفر النيل حتى أجروا ماء إلى أرض مصر ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان وكانت أيام البودسير بن قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عدل جانبى النيل تعديلا ثانيا بعدما أتلفه الطوفان (٥١) ويقال أن هذا الملك الأسطورى أرسل هرمس الكاهن المصري إلى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته حتى عمل هناك التماثيل النحاس وعدل البطيحة (البحيرة) التى ينصب فيها ماء النيل . ويقال أنه الذى عدل جانبى النيل بعد أن كان يفيض وينقطع فى بعض المواضع .أما التماثيل النحاس فقد كان عددها خمسا وثمانين صورة جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بحيث ينساب الماء منها نحو أرض مصر بالقدر الذى يصلح للزراعة .

أما الأسطورة الثانية عن منابع النهر النيل فتقول أن الوليد بن دومع العمليقى خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ليسكن مايوافقه منها ، فلما وصل الشام «انتهى إليه خير مصر وعظم قدرها وأن أمرها قد صار إلى النساء وباد ملوكها» فاستولى على مصر وأراد

(٥١) من الحقائق التى يؤمن بصحتها كثير من العلماء أن نهر النيل بدأ يشق طريقه نحو أرض مصر أواخر عصر الميوسين نتيجة إنحسار مياه البحر الميوسين عنها . ثم أخذ النهر يحفر لنفسه مجرى عميقا فى تكوينات الفترات الجيولوجية السابقة .. ومعنى هذا أن نشأة مجرى نهر النيل ترجع الى عملية النحت المائى وحدها .
أنظر : محمد صفى الدين أبو العز مورفولوجية الأراضى المصرية ، ص١٢٥ - ص٢١٦ .حيث يروى قصة نهر النيل من وجهة النظر الجيومورفولوجية .

أن يعرف من أين ينبع النيل ، وخرج فى جيش عظيم فلم يمر بأمة إلا أبادها ومر على أمم السودان وجاوزهم ومر على أرض الذهب « فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب »وأخيرا وصل إلى البحيرة التى يخرج منها النيل والتى تصب فيها روافده التى تخرج من تحت جبل القمر «وسار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهو جبل عال وإنما سمى جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء . وهناك وجد التماثيل النحاس التى عملها هرمس ، وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل وأن تلك الأرض من أرض الجنة . وأن تلك القبة من زبرجد وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأحلى رائحة من الكافور» وتنسب الأسطورة هذه المعلومات الجغرافية الوهمية إلى شخصية أسطورية أخرى هو حايد وهو من نسل إسحق بن إبراهيم عليه السلام وصل إلى تلك القبة

وتستمر الرواية الأسطورية لتقول أن الوليد صعد على جبل القمر «فأشرف على البحر الأسود الرفتى المنتن ونظر إلى النيل يجرى عليه كالأنهار الدقاق.. » ثم هبت من البحر الزفتى روائح منتنة أهلكت الكثير من أصحابه .

ويحكي المقريزى قصة فرعية تقول أن بعض الرواة قالوا أن حايد كان

نبيا وقد طلب من الله أن يريه منابع النيل فمشى على البحر المظلم لا يلصق بقدمه شيء منه واستغرقت رحلته ثلاثين سنة فى عمران وعشرين سنة فى خراب . (٥٢)

هاتان أسطورتان تتحدث أولاهما على منطقة المنابع ، والثانية عن محاولة كشف هذه المنطقة وثمة أحداث تفصيلية تربط بينهما. وتتخيل الأسطورة الأولى أن هرمس (الذى تنسب إلى حكمته وعلمه الكثير من الأنجازات الخيالية) هو الذى وضع الترتيبات الهندسية فى منطقة المنابع بحيث تصل من مياه النيل إلى الأرض المصرية مايكفى للزراعة دون أن يتسبب فى غرق البلاد وهلاك العباد . أما الأسطورة الثانية فتتحدث عن أبطال أسطوريين ذوى قدرات خارقة من ناحية ، كما تتحدث حديثا كله مبالغات خيالية عن منابع نهر النيل بشكل يوحى بأنه ينبع من الجنة فعلا من ناحية أخرى . وما الحديث عن أرض الذهب وبحر الزفت ورحلة حايد الإعجازية سوى إشارات إلى ذلك الاجلال والتعظيم الذى عامل به المصريون نهر النيل ولأن أحراش إفريقيا كانت آنذاك عائقا حقيقيا أمام أية محاولة لتتبع النهر والوصول إلى منابعه ، فقد عوض الخيال ذلك النقص فى المعلومات بتلك الأساطير.

بيد أن هذه الروايات الخيالية والأساطير التى تداولتها المصادر العربية عن نهر النيل لم تحل دون وجود روايات وتقارير «جغرافية»

---

(٥٢) الخطط ، جـ١ ، ص٥١ - ص٥٣ .

اقتربت من الحقيقة إلى حد ما، خلت من المساحة الأسطورية ، وأن لم تخل من الخيال الذى عوض الجهل بالحقائق الجغرافية بطبيعة الحال. من هذه الروايات مانقله المقريزى عن قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج ، والادريسى صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» ومن اللافت للنظر أيضاً أن وصف النيل ابتداء من جنادل النوبة حتى مصبه فى البحر المتوسط تميزه الدقة التى تعتمد على المشاهدة والمعاينة .(٥٣)

ومن المهم أن نشير إلى رواية تدخل ضمن الموروث الشفوى المتعلق بنهر النيل، ترددت كثيراً فى ثنايا المصادر العربية ومؤداها أنه عندما فتح عمرو بن العاص مصر جاء أهلها فى شهر بؤونه من شهور القبط «وهو موعد فيضان النيل السنوى) وأخبروه أن لنهر النيل سنة لا يجرى إلا بها وهى أنهم فى الثانى عشر من هذا الشهر يلقون فى مياه النيل بفتاة بكر فى أجمل زينه وأبهى حلى حتى يأتى الفيضان فرفض عمرو مطلبهم على أساس أن هذا لايجوز فى الأسلام ثم انقطع فيضان النيل أوكاد طوال ثلاثة شهور (بؤونه وأبيب ومسرى) فلما رأى عمرو بن العاص أن البلاد أوشكت على الخراب وقد عزم أهل مصر للخروج منها ، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بذلك فأرسل عمر بطاقة وأمر بإلقائها فى النيل وكتب فيها «من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما

---

(٥٣) الخطط ، جـ١ ، ص٥٣ – ص٥٥

بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الواحد القهار هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » وفى غد اليوم التالي كان النيل . قد وصل إلى حد الوفاء .(٥٤)

هذه الرواية نقلها المقريزى فى خططه (٥٥) عن المؤرخ المصرى عبد الرحمن بن عبدالحكم الذى جمع كل التراث الشفوى والمدون عن «فتح مصر» فى كتابه فتوح مصر وأخبارها » وواضح أنها من الحكايات الخيالية التى صاحبت أحداث فتح مصر والسنوات الأولى التى أعقبت هذا الفتح وكتاب أبن عبد الحكم ألفه صاحبه فى القرن الثالث الهجرى بعد أكثر من قرنين من الزمان كانت الأحداث التاريخية خلالهما قد حملت بالكثير من التداعيات الخيالية ومنها هذه القصة عن زيادة النيل ويبدو لنا أن الهدف من هذه الرواية ومثيلاتها هو التأكيد على منع الإسلام لكل الممارسات الوثنية السابقة عليه فى كل مكان ومايرجح ذلك الرأى أن قدماء المصريين لم يعرفوا القرابين البشرية فى عباداتهم ولم يثبت أنهم قدموا ضحية بشرية لآلهتهم (٥٦)

---

(٥٤) وفاء النيل هو بلوغ ارتفاع النهر ستة عشر ذراعا ، وهي الكمية الصالحة للزراعة ورى الأراضي حسب نظام الرى السائد في مصر آنذاك . والذى قام على اساس «ري الحياض» الذى كان موجوداً بصعيد مصر حتي بناء السد العالي ، وهو نظام لا يتيح زراعة الأرض اكثر من مرة واحدة سنويا . انظر : قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨م.

(٥٥) الخطط ، جـ١ ، ص٥٨

(٥٦) Manfred Lurker, op. cit, pp.7-21

على أية حال ، فإن الموروث الشعبى المرتبط بنهر النيل يكشف عن حقيقتين تاريخيتين غاية فى الأهمية أولاهما : أن حياة المصريين ووجودهم اعتمد على النهر العظيم اعتمادا مطلقا (وهى حقيقة قائمة حتى اليوم) وأن إحساسهم بهذا كان أكبر من إحساسهم الآن لسبب واضح وهو أن الإنسان المصرى لم يكن قد نجح تماما فى ترويض النيل من خلال القناطر والسدود كما هو الحال بعد بناء السد العالى وتخزين مياه النيل فى بحيرة ناصر جنوبى أسوان ، وثانيتهما أن هذه الأحاسيس تجاه النيل بما تعكسه من حب وخوف ، قد عبرت عن نفسها فى حكايات العجائب والغرائب المتصلة بالنيل فضائله ومنابعه والحكايات الدائرة حوله ولم يكن بوسع أى من المؤرخين الذين كتبوا عن مصر خلال تاريخها الطويل أن يتجاهل الموروث الشعبى الذى يتناول نهر النيل.

ومن المعلوم أن الحضارة المصرية الضاربة بجذورها فى أعماق الزمان قد أنتجت واحدا من أوائل المجتمعات الحضرية المستقرة . وقد كان من الطبيعى أن تنشأ فى مصر القديمة عدد من المدن القديمة التى شيد بعضها زمن الفراعنة وشيد بعضها الآخر على امتداد تاريخ مصر الطويل . وحول هذه المدن القديمة دارت موضوعات الموروث الشعبى فى إطار خيالي يعكس مدى الانبهار والاعجاب بهذه المدن . وقد جمع المؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى عددا من الأساطير والروايات الخيالية حول هذه المدن . وربما يكون مناسبا أن نورد بعض الأمثلة على هذه الأساطير . بيد أن مايلفت النظر هنا أن رواية المقريزى عن «مدائن أرض

مصر» تجمع بين الأسطورة والتاريخ على نحو مثير إذ يقول : (٥٧)

«وأول مدينة عرف اسمها فى أرض مصر مدينة أمسوس، وقد محا الطوفان رسمها ولها أخبار معروفة ، وبها كان ملك مصر قبل الطوفان ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف . وكان بها ملك القبط والفراعنة إلى أن خربها بخت نصر.فلما قدم الأسكندر بن فيليبش المقدونى من مملكة الروم عمر مدينة الأسكندرية عمارة جديدة ، وصارت دار المملكة بمصر إلى أن قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين وفتح أرض مصر فاختط الفسطاط وصارت مدينة مصر إلى أن قدم جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله أبى تميم معه وملك مصر واختط القاهرة .. وصارت القاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا .. »

وبعد أن يورد المقريزى أسماء عدد من المدن المصرية يورد حكاية خيالية عن أن «مصر بن بيصر» قسم الأرض بين أولاده فأعطى ولده أشمون من حد بلده إلى رأس البحر إلى دمياط . وأعطى ولده أنصنا من حد أنصنا إلى الجنادل وأعطى لولده صا من صا ، أسفل الأرض إلى الأسكندرية ، وأعطى لولده منوف وسط الأرض السفلى منف وما حولها وأعطى لولده قفط غربى الصعيد إلى الجنادل ، وأعطى لولده أتريب شرقى الأرض إلى البرية (بقصد صحراء الشرق) وأعطى بناته الثلاث وهن الفرما وسريام وبدورة بقاعا من أرض مصر محددة فيما بين

---

(٥٧) الخطط . جـ١ ، ص١٢٨ - ص١٢٩ .

إخوتهن»(٥٨)

يتضح من هذه الرواية الخيالية مدى تأثر الراوى بالأنساب العربية ذلك أن عدم القدرة على معرفة أسباب تسميات المدن المصرية القديمة جعل الخيال يجنح إلى حد تصور أن هذه المدن قد اكتسبت أسماءها من أبناء «مصر بن بيصر بن حام بن نوح» الذى ينسب اليه إسم مصر ـ الذين قسمت بينهم أرض مصر ، بل أنه ينسب بعض الأسماء إلى بنات هذه الشخصية مثل «الفرما» (فى المنطقة القريبة من بورسعيد حاليا).

وتكشف الأساطير التى تدور حول المدن المصرية القديمة بما تحويه من أخبار العجائب والغرائب عن مدى إعجاب الرواة وانبهارهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذى يبدو واضحا من خلال تلك القصص الخيالية عن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة . يقول المقريزى تحت عنوان «ذكر مدينة أمسوس وعجائبها وملوكها »(٥٩) :

« .. وأول من ملك مصر نقراوش الجبار بن مصرايم ومعنى نقراوش ملك قومه ونقراوش هو الذى بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين وعند غروبها مرتين فيستدلون بصفيره على مايكون من الحوادث حتى يتهيأون لها ومنها صنم من حجر أسود فى وسط المدينة تجاهه صنم مثله إذا دخل سارق المدينة لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما . فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ . وعمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال

(٥٨) الخطط جـ١ ، ص١٢٩
(٥٩) الخطط جـ١ ، ص١٢٩ ص١٣٤

عليها سحاب يطلع فكل من استمطرها أمطرت عليه ماشاء . وعمل على حد البلاد أصناما من نحاس مجوفة وملأها كبريتاً ، ووكل بها روحانية النار فكانت إذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته وعمل فوق جبل بطرس منارا يفور بالماء ويسقى ماحوله من المزارع ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان.. »

ويواصل المقريزى حكاياته عن ملوك أمسوس المزعومين وإنجازاتهم الخيالية ، على نحو يكشف عن حجم الخيال الذى غلف تاريخ قدماء المصريين نتيجة اختفاء من يعرفون اللغة الهيروغليفية . وعلى أية حال فقد كان على العالم أن ينتظر حتى تمكن شمبليون من فك رموز اللغة المصرية القديمة . بفضل حجر رشيد وبعدها ازدهر علم الأثار المصرية القديمة . ومن خلال جهود عشرات العلماء والباحثين المستمرة حتى اليوم أميط لثام الغموض وتراكمات الأسطورة والخيال عن الحضارة المصرية القديمة .

ويسلك مؤرخنا المسلك نفسه فى حديثه عن مدينة منف وملوكها (٦٠) ويذكر أن هذه المدينة كانت فى غربى النيل على مسافة إثنى عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر ثم يقول « ...وهى أول مدينة عمرت بمصر بعد الطوفان وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التى تقدم ذكرها إلى أن أخربها بخت نصر... ومدينة منف هى مدينة فرعون التى كان ينزلها

---

(٦٠) الخطط ، جـ١ ، ص١٢٤ - ص١٤٤ .

واتخذ لها سبعين بابا من حديد وجعل حيطان المدينة من الأحجار والصفر. وفيها كانت الأنهار تجرى من تحت سريره ، وهى أربعة . ويروى أن مدينة منف كانت قناطر وجسورا بتدبير وتقدير حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا.. » وتستمر هذه الحكايات لتستعرض ملوك منف حتى تصل إلى من تسميه الرواية «شدات بن عديم » » فيقول « .. وهو الذى تسميه العامة شداد بن عاد ، وكان عالما كاهنا ساحرا ، ويقال أنه هو الذى بنى الأهرام الدهشورية وعمل أعمالا عظيمة وطلسمات عجيبة وبنى فى الجانب الشرقى مدائن وفى أيامه بنيت قوص.. »

بيد أن أهم مايسترعى الانتباه فى الحكايات الخاصة بمنف أنها أقل إغرابا وخيالا من الحكايات الخاصة بأمسوس، كما أنها من ناحية أخرى تتحدث عن أن أولئك الملوك استحدثوا ممارسات حضارية كثيرة فالملك شدات بن عديم « أول من اتخذ الجوارح فى الصيد وصاد بها وولد الكلاب السلوقية » والملك أشمون بن قبطيم هو « أول من لعب بالكرة والصولجان » وأول من عمل النوروز فى مصر(٦١) والملك«مرقورة» أول من ذلل السباع وركبها .

---

(٦١) عيد الربيع فى مصر (يقابل شم النسيم حاليا) . وقد استمر الاحتفال به فى مصر تحت هذا الأسم حتى العصر العثمانى على الأقل . وكان الناس يخرجون فيه الى الحدائق وصفحة النيل للاحتفال . ويبدو أن كثيراً من أوجه الحياة كانت تعطل فى العاصمة المصرية وغيرها بسبب هذا العيد . أنظر : قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الثانية - دار المعارف).

ومن ناحية أخرى نجد بعض الحكايات عن ملوك منف تحمل نواة من الحقيقة التاريخية ففى أخبار من تسميه الرواية «الملك تدراس» نجد أنه حارب بعض عمالقة الشام ودخل إلى فلسطين وغزا السودان من الزنج والحبش» ومن المعلوم أن حروبا قد نشأت بين مصر القديمة والحيثيين فى بلاد الشام . كما أن حروب مصر ضد القادمين من الجنوب ، واهتمام ملوك مصر من الفراعنة بتحصين الجنوب أمر معروف تماما . كما يذكر المقريزى أن الملك قاليقى بن تدارس « كان موحدا وخالف أهل مصر فى عبادة الكواكب والبقر » وهو مايذكرنا بإخناتون ومحاولاته التوحيد فى عبادة آتون (٦٢) وعلى آية حال فإن حجم الخيال فى روايات منف (التى بنيت بعد الطوفان على حد زعمهم) كان أقل كثيرا من حجم الخيال فى الأساطير المتعلقة بمدينة أمسوس (التى كانت قائمة حتى دمرها الطوفان) والتى يبدو أن وجودها نفسه كان ضربا من الخيال .

والحكايات الخيالية حول مدينة منف كثيرة ومتنوعة لكنها تدور حول سلسلة أخبار الملوك الذين تصورت هذه الحكايات أنهم حكموا مصر حتى الأسكندر . ويعلق المقريزى على ذلك بعبارة تكشف عن مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالة فى ثنايا الرواية فهو يذكر أسم «تافاطانيوش» وهو إسم يبدو محرفا عن أسم بطليموس فى نقطة اليونانى «بوتاليمايوس» وقد عبر المقريزى عن هذه الحيرة بعبارة نصها

(٦٢) Manfred Lurker, The Gods and Synbols, artAten, p.31..

« وهذه أسماء رومية « أى يونانية » ولعل بعضها متداخل فيما تقدم » .(٦٣)

وقد كان حظ مدينة الاسكندرية من الموروث الشعبى كبيرا فى خطط المقريزى ويدأ حديثه عنها بقوله « هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا وقد بنيت غير مرة . فأول مابنيت بعد كون الطوفان فى زمان مصرايم بن بيصر بن نوح ، وكان يقال لها آن ذاك مدينة رقودة ، ثم بنيت بعد ذلك مرتين فلما كان فى أيام اليونانيين جددها الأسكندر ابن فيليبس المقدونى الذى قهر دارا وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية فعرفت به.. »

هنا نجد اختلاطا بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية بشكل مثير ، فقد بنى الأسكندر مدينة الاسكندرية فوق بقايا راقودة حقا ، كما أنه قهر الفرس ، ولكن بقية القصة تحمل بصمات الخيال . ثم أورد المقريزى عددا من الروايات الخيالية حول بناء راقودة ، أو رقودة ، منها أن دوابا كانت تخرج من البحر تفسد على الأهالى زراعاتهم وبنيانهم فعملوا لها الطلسمات فغابت « .. وبنوا على غير البحر مدنا منها مدينة رقودة مكان الأسكندرية وجعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب والقبة مائة ذراع فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم ، فإن كان ممن يهمهم وكان من البحر عملوا لتلك المرأة عملا فألقت شعاعها

(٦٣) الخطط ، جـ١ ، ص١٤٤ .

على ذلك الشيء فأحرقته فلم تزل إلى أن غلب البحر عليها .. »

وثمة رواية أخرى تقول « .. وذكر بعض القبط أن رجلا من بني الكهنة الذين قتلهم إيساد ملك مصر صارإلى ملك كان في بلاد الفرنجة، فذكر له كنوز مصر وعجائبها ، وضمن له أن يوصل إلى ملكها وأموالها ويرفع عنه أذى طلسماتها حتى يبلغ جميع مايريد فلما اتصل بصا بن مرقونس أخي إيساد وهو ملك مصر يومئذ ، أن صاحب بلاد الأفرنجة يتجهز إليه عمد إلى جبل بين البحر الملح وشرقي النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه وبنى عليه قبابا مصفحة بالرصاص وظهر صاحب بلاد الأفرنجة في ألف مركب ، فكان لا يمر بشيء من أعلام مصر ومنازلها إلا هدمه وكسر الأصنام بمعونة ذلك الكاهن ، حتى أتى الأسكندرية الأولى فعاث فيها وفيما حولها وهدم أكثر معالمها إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد ، وصعد إلى منف وأهل النواحي يحاربونه وهو ينهب مامر به ويقتل ماقدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة لأخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلسمات السداد والمياه العميقة والخنادق والشداخات وأقام عليها أياما كثيرة ، فلم يمكنه الوصل اليها وغضب على الكاهن وقتله من أجل أن جماعة من أصحابه هلكوا فأجتمع أهل النواحي وقتلوا من أهل مصر بسحرهم وتهاويلهم فأتت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتى نجا بنفسه وقد خرج فعاد الناس إلى منازلهم وقراهم ورجع الملك صا إلى منف وأقام بها .. »

هاتان الحكايتان الخياليتان مثال على القصص الدائر في التراث

الشعبى حول مدينة الأسكندرية والقصص التى تدور حول هذه المدينة كثيرة فى خطط المقريزى ، وقد جمعها من المؤرخين السابقين ومن رواة الحكايات الشعبية . ونلاحظ فى الحكاية الثانية مثلا أن الرواية منقوله عن «بعض القبط» على حد تعبير المقريزى . بيد أن مايلفت نظرنا فى هذه الروايات جميعا أنها تتحدث دائما عن أعمال السحر والطلسمات التى كانت تلازم بناء المدن المصرية القديمة سواء قبل الطوفان أو بعده وفى تقديرنا أن حكايات السحر والطلسمات هذه شأنها شأن أخبار الخوارق والمعجزات تعكس قدرا كبيرا من الانبهار والاعجاب الممزوجين بالنقص الفادح فى المعلومات التاريخية . ولا غرابة فى أن تحظى مدينة الأسكندرية بهذا القدر الكبير من اهتمام الموروث الشعبى . فقد كانت عاصمة مصر منذ أسسها الأسكندر وطوال عصر البطالمة وظلت هي العاصمة حتى بعد هزيمة أسطول كليوباترا فى معركة أكتيوم وانتحار آخر سلالة البطالمة وتحول مصر إلى ولاية رومانية في النصف الأخير من القرن الأول ق. م وبقيت الأسكندرية عاصمة لمصر طوال حوالى سبعة قرون عندما فتح عمرو بن العاص مصر تحت راية الإسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، ولذلك انعكست أهمية العاصمة المصرية فى الحكايات الدائرة حول مدينة الأسكندرية وهى لا تختلف كثيراً ، سواء من حيث بنائها الفنى ، أو من حيث هدفها ، عن الحكايات الخيالية

حول المدن المصرية الأخرى (٦٤).

هكذا إذن كان احتفال المروث الشعبى الذى حفظته لنا الخطط المقريزية عظيما بالمدن المصرية التى كان تاريخها بعضها يرجع إلى عصور تاريخية سحيقة ، كما كان معظمها يحمل من الآثار المادية مايدل على أن ثمة حضارة تليدة هى التى أفرزت مثل هذه الآثار العظيمة بيد أن انقطاع أخبار هذه الحضارة القديمة نتيجة للفشل فى حل رموز اللغة الهيروغليفية أفسح المجال أمام الخيال لسد الثغرة الناجمة عن نقص المعلومات من ناحية والتعبير عن الرؤية الشعبية للتاريخ الذى أنتج هذه الحضارة من ناحية أخرى .

يبقى أن نتحدث عن المروث الشعبى المتعلق بالحياة اليومية فى خطط المقريزى . وهنا ينبغى أن نلاحظ أن عناصر هذا التراث تنوعت مابين الشعر والقصة والسيرة كما ينبغى أيضا أن نلاحظ أن فنون الشعر قد تنوعت مابين الأزجال والبلاليق والشعر الساخر (٦٥) كما تنوعت الفنون النثرية مابين الحكاية (مثل الف ليلة وليلة) والتمثيليات فى خيال الظل (مثل بابات إبن دانيال) والسيرة مثل سيرة الظاهر بيبرس والسيرة الهلالية) وما إلى ذلك لكن ماتضمنه كتاب الخطط المقريزية

---

(٦٤) أنظر الحكايات الخاصة بالاسكندرية . الخطط . جـ١ ، ص١٤٤ - ص١٧٢ . وعن مدينة أثريب ، ص١٧٥ - ص١٧٦ ، وعن مدينة تنيس ص١٧٦ - ص١٧٧ ، وعن مدينة صا ، ص١٨٢ وعن بلبيس ، ص١٨٣ - ص ١٨٤ ، وعن مدينة آيلة ، ص١٨٤ - ص١٨٦ .

(٦٥) عن موضوع الشعر الساخر انظر : محمد رجب النجار « الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك » ، مجلة عالم الفكر ، (المجلد الثالث ، العدد لثالث) ،ص٦٣ - ص١٤٦ ؛ (المجلد الرابع عشر - العدد الأول) ص١٩٣ - ص٢٧٦

كان من الشعر الشعبى والحكايات ذات البناء البسيط وكلها تدور حول أمور السياسة والاقتصاد والحرب وأحوال المجتمع فى حياته اليومية ومن ثم نجدها متناثرة فى ثنايا كتاب الخطط ففى سنة ٧٨٢ هـ أمر الأمير الكبير برقوق (قبل أن يجلس على عرش السلطنة) بمنع الاحتفال بعيد النوروز «..فانكف الناس عن اللعب فى القاهرة ، وصاروا يعملون شيئا من ذلك فى الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعدما كانت أسواق القاهرة تتعطل فى يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب مايخرجون عن حد الحياء والحشمة إلى الغاية من الفجور والعهر وقلما انقضى يوم النوروز إلاّ وقتل فيه قتيل أو أكثر ولم يبق للناس الآن من الفراغ مايقتضى ذلك، ولا من الرفه والبطر مايوجب عمله وما أحسن قول بعضهم

كيف ابتهاجك بالنوروز ياسكنى　　　وكل مافيه يحكينى واحكيه

فتارة كلهيب النـار فى كبـدى　　　وتارة كتوالي دمعتـى فيـه

وقال آخر:

نورز الناس ونورزت ولكن بدموعى

وذكت نارهم والنار مابين ضلوعى

وقال آخر:

ولما أتى النوروز ياغاية المنى　　وأنت على الإعراض والهجر والصد

بعثت بنار الشوق ليلا إلى الحشا　　فنورزت صبحاً بالدموع على الخد.(٦٦)

(٦٦) الخطط ،جـ١ ،ص٢٦٩ .

هذا النص الذى نقلناه عن المقريزى يقدم لنا مثالا رائعا عن التكامل بين النص التاريخى والنص الفنى حول ظاهرة أو حادثة تاريخية بعينها فقد كانت الأحوال السياسية والاقتصادية فى مصر مرتبكة قبيل اعتلاء برقوق عرش السلطنة ، ولم يعد الناس قادرين على الاحتفال بعيد النوروز (عيد الربيع) وأنعكس ذلك فى نصوص الشعر وغيره.

ويقول المقريزى تعقيباً على تدهور بركة الرطلى التى كانت واحدة من أهم متنزهات القاهرة ففى وقت الفيضان كانت المراكب على سطحها تحمل أهل القاهرة من الرجال والنساء والأطفال للنزهة « .. فإذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط فيجتمع فيها من الناس فى يومى الأحد والجمعة عالم لا يحصى لهم عدد.. » ولما جدثت الأزمة الاقتصادية بعد سنة ٨٠٦ هـ تلاشت مساحتها وبنص عبارة المقريزى .. » لما تكدر جو المسرات وتقلص ظل الرفاهية وانهلت سحائب المحن من سنة ست وثمانمائة تلاش أمرها وفيها إلى الآن بقية صبابة ومعالم أنس وآثار تنبىء عن حسن عهد ولله در القائل:

فى أرض طبالتنا بركة	مدهشة العين والعقل
ترجح ميزان عقلى على	كل بحار الأرض بالرطل(٦٧)

وهذا مثل آخر على مدى تفاعل النص الفنى مع التص التاريخى حول جانب من جوانب الحياة الأجتماعية فى مصر زمن سلاطين المماليك.

(٦٧) نفس ، جـ٢ ، ص١٦٢

وفى مناسبة يوم وفاء النيل كان يتم تخليق مقياس النيل (أى دهنه بالعطور والروائح الطيبة) وقال أحد الشعراء بصف الأحتفال بهذه المناسبة:

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول
ستر الإله علينا لا يزال فما احلى تهتكنا والستر مسبول (٦٨)

والأمثلة كثيرة ومتواترة فى صفحات خطط المقريزى عن تضافر النص الشعرى والخبر التاريخى على نحو يكشف عن أهمية المورث الشعبى فى بناء الرواية التاريخية وعندما اشتد الغلاء على الناس أنشد شاعر شعبى:

قل للغلا أنت وابن زهر بلغتما الحد والنهاية
ترفقا بالورى قليلا فى واحد منكما كفاية (٦٩)

وعن فساد الصوفية فى عصر المماليك أنشد شاعر شعبى آخر:

ماشروط الصوفى فى عصرنا اليوم سوى ستة بغير زيادة
وهى(...) والسُكر والسطلة والرقص والغنا والقيادة .
وإذا ماهذى وأبدى اتحاداً وحلولا من جهله أو إعادة
وأتى المنكرات عقلا وشرعا فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة (٧٠)

وقد أورد المقريزى حكاية عجيبة عن القرافة (أى مدافن القاهرة)

(٦٨) الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .
(٦٩) نفسه ، جـ٢ ، ص١٩٩ . . وابن زهر هنا طبيب مشهور أنشد فيه قصائد شعر حاكاها هنا الشاعر الشعبى المجهول .
(٧٠) الخطط ، جـ٢ ص٤١٤ . ومكان النقاط كلمة بذيئة حذفناها .

نصها : «وفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ظهر شىء يقال له القطرية تنزل من جبل المقطم فاختطفت جماعة من أولاد سكانها حتى رحل أكثرهم خوفا منها .وكان شخص من أهل كبارة مصر يعرف بحميد القوال خرج من أطفيح على حماره ، فلما وصل حلوان عشاء رأى إمرأة جالسة على الطريق فشكت إليه ضعفا وعجزا فحملها خلفه فلم يشعر بالحمار الا وقد سقط فنظر إلى المرأة فإذا بها أخرجت جوف الحمار بمخالبها ففر وهو يعدو إلى والى مصر وذكر له الخبر فخرج بجماعته إلى الموضع فوجد الدابة قد أكل جوفها . ثم صارت تتبع الموتى بالقرافة وتنبش قبورهم وتأكل أجوافهم وتتركهم مطروحين فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمنا حتى انقطعت تلك الصورة»(٧١)

***

هذه نماذج متنوعة من الموروث الشعبى الذى حملته صفحات الخطط المقريزية وهى نماذج توضح لنا أن المؤرخين فى عصور الثقافة العربية الإسلامية المزدهرة لم يغفلوا أمرها وأدركوا أهميتها تماما فى بناء روايتهم التاريخية . وقد استطاع المقريزى فى مؤلفه الرائع أن يقدم «مادة تاريخية» متكاملة إذ قدم لنا الخبر التاريخى عن مصر منذ الفتح الإسلامى حتى منتصف القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) كما زودنا فى الوقت نفسه بحكايات وأساطير وأشعار بينت لنا الرؤية الشعبية لتاريخ البلاد ومعالمها الجغرافية وعكست رؤية

(٧١) الخطط ، جـ٢ ، ص٤٤٥.

المصريين لنيلهم وتقديرهم لفضله على مصر وساكنيها . ومن ناحية أخرى كانت الحكايات الأسطورية والخيالية عن منجزات قدماء المصريين تعكس قدرا كبيرا من الإعجاب بتلك الحضارة التى خلفت فى عالم المادة آثارا مادية رائعة تنوعت مابين الأهرام وأبى الهول وأطلال المعابد والمدن المصرية القديمة ، وكنوز المقابر وغيرها كما تركت فى عالم الفكر والوجدان قصصا خيالية تشيع فيها أخبار السحر والمعجزات والطلسمات بما تحويه من رهبة وغموض.

كذلك كانت عناصر الموروث الشعبى التى تتناول الحياة اليومية مرآة تضىء الخبر التاريخى عن جوانب الحياة فى مصر ، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وفكريا . وهذه القصة التى أوردناها عن القرافة مثال جيد على نوعية قصص الرعب التى كان أهل القاهرة يتداولونها حول المقابر والرهبة التى أحاطت بالموتى والقبور . وهى تذكرنا بتلك القصص المرعبة التى سمعناها كثيرا فى طفولتنا عن النداهة والعفاريت والمارد. بيد أن أهم ماتدل عليه هو مدى سيطرة الخيال والخرافة على حكى القصص آنذاك وهو الأمر الذى تؤكده أيضا قصص الف ليلة وليلة .

ومن البديهى أن خطط المقريزى ليست مؤلفا فى التراث الشعبى ومن الطبيعى أنها لم تضم كافة أشكال النتاج الشعبى من سير وحكايات وأشعار والغاز ونكات وغرائب وعجائب . لكنها مع ذلك حملت لنا قدرا لابأس به من الموروث الشعبى وفى أسلوب جمع بين الموروث الشعبى والتاريخ فى منظومة متكاملة جعلت كتاب الخطط المقريزية جديرا بالشهرة التى نالها .

نهر النيل في الأساطير العربيــــــــة

النيل أكثر أنهار الدنيا فضلا على الناس والأرض التى ينساب فيهاوفضل النهر الخالد على مصر وساكنيها لا يدانيه فضل نهر غيره على الأرض والناس .. فالتربة الزراعية المصرية ، التى اشتهرت بخصوبتها ، منقولة كلها أو جلها من فوق جبال الحبشة البركانية بفضل تراكمات الطمى التى كان فيضان النيل السنوى ينقلها عبر سنوات طوال امتدت إلى الأغوار السحيقة للزمن القديم. وبعبارة أخرى فإن وادى النيل فى شطره المصرى(من وادى حلفا جنوبا حتى البحر المتوسط شمالا) عبارة عن تكوين رسوبى من الطمى الذى حملته مياه نهر النيل من فوق جبال الحبشة لتلقيها فى الركن الشمالى الشرقى من قارة إفريقيا مكونة أرض الكنانة التى شهدت مولد حضارة من أعرق حضارات الأنسان فى رحلته التى لم تتم بعد عبر الزمان.

ومنذ أيام موغلة فى القدم كان واضحا لساكنى مصر ومن خالطوهم أو جاوروهم ، أن هذه الحضارة المبكرة فى النضوج والرقى أزدهرت بفضل نهر النيل لا سيما فى تلك الأزمنة التى كان الإنسان فيها مايزال واقعا تحت رحمة الطبيعة. فلا غرو اذن ، أن يصبح نهر النيل محط اهتمام المصريين ،وغيرهم ، ممن سكنوا أرض الكنانة ، أو حكموها ، منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

فقد بدأت محاولات استكشاف النهر منذ أن نجح المصرى القديم فى استئناس النبات ، وأخذ يتحول صوب الزراعة ، نشاطه الحضارى الأول والمستمر ، كذلك بدأت فى تلك المرحلة الباكرة محاولات تطويع النهر

الكبيـر لإرادة الإنسـان المصـري ونشـأت في تلك المرحلة المبكرة أيضـا المسألة الجغرافيـة المشـهورة مسـألة النيل أو «سـر النيل» (١) واستمرت محـاولات استكشـاف نهـر النيل في خط مـواز لتلك المحـاولات التي استهدفت تطويعه فمن رحلات المصريين القدماء مرورا باليونان القدماء (وأشهرهم بطليموس الجغرافي) ثم العرب بعد الفتح الاسلامي لأرض النيل تتابعت المحاولات لاستكشاف النيل ومنابعه كما وضعت النظريات والاجتهادات التي تشوبها الخرفات أحيانا كثيرة حتى جاءت اللحظة الحاسمة في العصر الحديث إذ تعاقب المستشكفون منذ عصر محمد على حتى بداية القرن الحالي وأميط ذلك اللثام الذي كان يحجب النهر في مجراه الأعلى ومنطقة المنابع وانكشف «سر النيل بعد عناء استمر عبر القرون والأجيال (٢).

بيد أن هذه الملامح الجغرافية ليست كل القصة فيما يتعلق بالنهر الخالد . فمن بديهيات الوجود المصري أن هذه الواحة الفيضية الكائنة على أبواب إفريقيا الشمالية الشرقية وجدت بفضل النيل ، ومازالت تعيش بفضله . تسعدها خيراته وتزعجها نزواته،إذا فاض فأغرق أو إذا غاض فأعطش . ومن ثم قامت على ضفاف النهر أم الحضارات وقوامها الزراعة وانكب هؤلاء الزراع من أبناء الكنانة يشيدون حضارتهم التي تشهد على عظمتها تلك الآثار المادية واللامادية التي خلفوها في عالم

(١) محمد عوض محمد ، نهر النيل (الطبعة الخامسة - القاهرة ١٩٦٢) ص٣.
(٢) محمد عوض محمد ، نهر لنيل . ص٨ - ص٢٢.

اليوم . وقامت حول النصر الخالد ومحاولات تطويعه حياة شعب بأكمله.

ولم يكن ممكنا لنهر هذا شأنه ألا يحفر لنفسه مكانة في الوجدان المصرى أعمق من المجرى الذى حفره لنفسه فى الأرض المصرية . وعبر الوجدان والعقل المصرى عن حبه وامتنانه لنهر النيل فى صياغات كثيرة، وعلى مستويات متنوعة ، فألبسوه ثوب القداسة بحيث كان النيل هو «الله» فى ديانة المصريين القدماء ، ثم صار «النهر المؤمن» وهو من «أنهار الجنة» فى عصر التوحيد.

وقد عكست أدبيات المصريين قبل الإسلام مدى احتفائهم بالنيل كما أن الأدبيات العربية المصرية بعد الإسلام تشى بأن مكانة النهر الخالد كانت عظيمة فى وجدان الناس فقد تناولوه فى الحديث النبوى والقصص الديني والخرافات والأساطير ، فضلا عن كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات والشعر والنثر والأدب الشعبى .

وهذه الدراسة تحاول استخلاص صورة نهر النيل من غياهب الأساطير التى وردت فى كتب المؤرخين والجغرافيين العرب ، سواء مايتعلق منها بالتصور الشعبى المأثور عن منطقة منابع النيل أو القصص الدينى الذى ينسب إلى النهر فضائل سماوية ويجعله من أنهار الجنة ، أو القصص الخرافية عن الكائنات العجيبة التى تعيش فى مياهه والتى يترتب على ظهورها بعض الأمور المفزعة.

وفيما يتعلق بالأساطير العربية التى تناولت نهر النيل فى مجراه الأعلى وفى منطقة المنابع يسترعى النظر أن هذه الأساطير قد ورد فى

كتب الجغرافيا أو الكتب التى تحدثت عن فضائل مصر . وتتفق هذه الكتب جميعا فى أنها تنقل المأثور والمتواتر من الأساطير عن منطقة منابع نهر النيل ؛ ولكن وصفهم لمجرى النهر من منطقة الجنادل جنوب أسوان ، حتى مصبه فى البحر المتوسط تتسم بالدقة لأنهم شاهدوا النهر فى هذه المنطقة وعاينوا مجراه ونظرا لأن مجرى النيل فى أعاليه كان عقبة كؤودا فى وجه من حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى منطقة المنابع (٣) فقد تصورت الأساطير والخرافات التى أوردها كتاب ذلك العصر منطقة المنابع أرضا خيالية تنبت فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس والحديد ، كما يجرى فيها بحر من الزفت تنبعث منه الروائح الكريهة التى تقضى على كل من يحاول الاقتراب من المنطقة التى تصوروا أنها تعج بأحجار مغناطيسية تجتذب كل من ينظر اليها وتقضى عليه. هذا الموقف الوجدانى يعكس بطبيعة الحال مدى الجهل بالطبيعة الجغرافية لمنطقة منابع نهر النيل ولكنه فى الوقت نفسه يكشف عن مدى الرهبة والخوف الكامنين فى أعماق اللا شعور تجاه النهر الذى عليه قوام الحياة فى مصر. ولما كان المصريون مايزالون تحت رحمة النهر الكبير ولم يتمكنوا من تطويعه وضبط مياهه (٤) فإنهم ظلوا يخشونه ويترقبون مواسم فيضانه بمزيج من القلق والرهبة والأمل. وفى تصورى أن هذا

---

(٣) محمد عوض محمد . المرجع السابق . ص٣ - ص٢٢ . والجدير بالذكر انه تم اكتشاف هذه المنطقة تماما فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

(٤) لم يحدث ان نجح المصريون فى التحكم فى مياه النيل ، وتأمين أنفسهم وزراعتهم ضد الغرق أو العطش قبل اتمام بناء السد العالى وتخزين قدر كبير من المياه فى «بحيرة ناصر» خلف السد العالى

الموقف العقلى والوجدانى قد انعكس فى أساطيرهم عن نهر النيل ومنطقة منابعه.

ويتفق معظم الجغرافيين والمؤرخين الذين كتبوا عن نهر النيل ، منذ عبد الرحمن بن عبد الحكم حتى السيوطى ورفاقه من كتاب عصر السلاطين المماليك ، على أن النهر ينبع من جبال القمر خلف خط الاستواء من عيون فى الأرض تجتمع فى عشرة روافد ، تجتمع كل خمسة منها لكى تصب فى بحيرة ثم تخرج ستة أنهار من البحيرتين لتجتمع مرة أخرى فى بحيرة واحدة حيث يخرج نهر النيل (٥) ومن المهم أن نلاحظ أن كلام أولئك الجغرافيين والكتاب عن منطقة منابع النيل اعتمدت بصفة أساسية على النقل من القدماء ولم تكن معلوماتهم أكثر من مجرد ترديد لأقوال بطليموس الجغرافى وغيره، كما أنهم من ناحية أخرى خلطوها بكثير من التصورات الشائعة عن تلك المنطقة . بيد أن هذه الكتابات التى ذكرت أن النيل يخرج من جبل القمر ، تذكر أيضا أن مجرى نهر النيل كان من عمل البشر ؛ إذ يذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى مانصه «جبل القمر وينصب منه النيل وبه أحجار براقة كالفضة تتلألأ تسمى ضحكة الباهت ، كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى

---

(٥) شهاب الدين احمد بن محمد المنوفى ،الفيض المديد فى اخبار النيل السعيد (مخطوط بدار الكتب المصرية ، ٦٦ جغرافيا)، ورقة ٤-٥ جلال الدين السيوطى . كوكب الروضة (مخطوط بدار الكتب المصرية - تيمور ٥٥٤ تاريخ) ورقة ٥٤ - ٥٧ . والجدير بالذكر أن السيوطى أورد خريطة النهر من منبعه الى مصبه وفقا للتصور الذى أشرنا اليه فى المتن ،انظر أيضا مقدمة ابن خلدون ص٤٥ - ص٤٦ . القلقشندى . صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ص٢٩٠ - ٢٩١ .

الموت، ويسمى مغناطيس . الناس . ويتشعب منه شعب يسمى أسيفى
، أهله كالوحوش ، ثم ينفرج منه فرجة ، ويمر منه شعب إلى نهاية المغرب
فى البحر المحيط يسمى جبل وحشية ، به سباع لها قرون طوال لا تطاق.
«وينعطف دون تلك الفرجة من جبل قاف شعاب منها شعبتان إلى خط
الأستواء يكتنفان مجرى النيل من الشرف والغرب من جبل القمر ..
يخرج نهر النيل وقد كان يتبدد على وجه الأرض ، فلما قدم نقراوس
الجبار بن مصرايم الأول إبن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه
السلام إلى أرض مصر ومعه عدة من بنى عرياب وأستوطنوها ، وبنوا
بها مدينة أمسوس وغيرها من المدائن ، حفروا النيل حتى أجروا ماءه
إليهم »(٦)

هكذا تصورت الأسطورة أن نهر النيل تم حفره بأيدى البشر ، وتمضى
الأسطورة التى أوردها المقريزى وغيره لتقول عن نهر النيل :

« ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى بل ، كان ينبطح ويتفرق فى
الأرض ، حتى وجه إلى النوبة الملك نقراوس فهندسوه وساقوا منه أنهارا
إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها ، وساقوا منه نهرا إلى مدينة
أمسوس . ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان . وكانت أيام البودشير بن
قفط بن مصر بن بيصر إبن حام بن نوح عليه السلام عدل جانبى النيل
تعديل ثانيا بعدما أتلفه الطوفان.

---

(٦) تقى الدين المقريزى . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ٢٧٠ هجرية) ،
جـ١ ، ص٥٠ - ص٥١

«ويقال أنه أرسل هرمس الكاهن المصرى إلى جبل القمر الذى يخرج منه النيل من تحته ، حتى عمل هناك التماثيل النحاس ، وعدل البطيحة التى ينصب فيها ماء النيل.

«ويقال أنه الذى عدل جانبى النيل ، وقد كان يفيض ، وربما انقطع فى مواضع.

«وهذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس وثمانين صورة جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد ومصاب مدورة، وقنوات يجرى فيها الماء وينصب اليها إذا خرج من تحت جبل القمر، حتى يدخل من تلك الصور ويخرج من حلوقها . وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع وأذرع مقدرة ، وجعل مايخرج من هذه الصور من الماء ينصب إلى الأنهار ، ثم يصير إلى بطيحتين ، ويخرج منهما حتى ينتهى إلى البحيرة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل »(٧)

وثمة رواية أخرى لهذه الأسطورة تقول أن الشياطين قد حملت «هرمس» إلى جبل القمر، فرأى كيفية خروج نهر النيل من ذلك الجبل . وبنى هناك قصرا به خمسة وثمانون تمثالا من النحاس تتحكم فى مخارج مياه النيل وفى مقدار هذه المياه .(٨) وهناك أسطورة أخرى تناقلتها المصادر العربية التى حاولت البحث عن منطقة النيل ومنطقة مجراه ا

(٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٥١ . وهرمس هذا هو الذى تنسب اليه الأساطير العربية بناء الأهرام وتصفه بالحكمة والعلم .

(٨) سراج الدين عمر بن الوردى ، جريدة العجائب وفريدة الغرائب ، (القاهرة ١٢٨٠هـ) ص١٥٤ - ص١٥٥ .

الأعلى ، وهى خليط من المعلومات الجغرافية والخرافات ، فقد نقل النويرى صاحب كتاب نهاية الأرض عن الإدريسى الجغرافى العربى الشهير (ت.٥٦٠ هـ)

وصاحب «نزهة المشتاق إلى اختراق الأفاق » أن اسم البطيحة الكبيرة (البحيرة) التى يخرج منها النيل «كورى » منسوبة إلى طائفة من السودان «.. يسكن حولها متوحشون ، يأكلون من يقع إليهم من الناس فإذا خرج منها النيل ، يشق بلاد كورى ثم بلاد نمنم وهم طائفة من السودان بن كانم والنوبة ..» (٩) ويعتقد بعض الجغرافيين العرب أن النيل يغوص تحت الرمال ويختفى في المنطقة الواقعة مابين بلاد كانم وبلاد النوبة ، ولا يظهر مرة خرى سوى عند بلاد النوبة (١٠).

ومن الواضح أن الأساطير العربية التى تتحدث عن منطقة منابع النيل تقدم لنا تصورا خياليا عن كيفية خروج منابع النهر من تحت جبل القمر ، ولكن هذه الأساطير لا تكتفى بذلك ، وإنما تتحدث عن تحكم البشر من ملوك مصر القدامى فى مجرى النيل فى منطقة المنابع . فقد رأينا كيف جرى الحديث عن أن الذين ملكوا مصر من نسل نوح عليه السلام قد حفروا مجرى النيل ، ورتبوا نوعا من السدود أو القناطر التى اتخذت شكل التماثيل، والتى يمكن بواسطتها التحكم فى مقدار المياه،

---

(٩) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى . نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية) ، جـ١ ص٢٦٢ .

(١٠) المنوفى ، الفيض المديد فى النيل السعيد ، ورقة ٥ - ٦ .

كما تتحدث هذه الأساطير عن أعمال جبارة جرت بعد الطوفان لإعادة صيانة ضفتي نهر النيل.

ويخطر على الذهن أن تكون هذه التصورات الأسطورية عن تدخل ملوك مصر الأولين نابعة من انبهار الجغرافيين والمؤرخين الذين أوردوها بضخامة الآثار المادية التي تخلفت عن عصر الفراعنة ، والتي تمثلت في المعابد الشاهقة والأهرامات ، وتمثال أبي الهول ...وغيرها من ناحية ، كما أنه يحتمل أن تكون هذه التصورات نتاجا للقصص الأسطورية التي تداولها الناس في مصر حول تاريخ مصر القديم من ناحية أخرى . وعلى أية حال، فإن هذه التصورات الخيالية لمنطقة منابع النيل ومجراه الأعلى تظل دليلا عن أن الإنسان يرفع النقص عن معلوماته دائما بالأسطورة التي تقوم بهذا الدور الثقافي الاجتماعي في حياة كل المجتمعات البشرية .

وهناك تصور آخر لمنطقة منابع نهر النيل ساقه الجغرافيون والمؤرخون العرب ، فقد زعم البعض بأن نهر النيل ونهر السند ينبعان من أصل واحد ودليلهم في ذلك اتفاق النهرين في الزيادة ، ووجود التمساح فيهما (١١) وربما يكون السبب وراء هذا التصور هو أيضا الذي جعل البعض ينسبون نهر النيل إلى أنهار الجنة الأرضية التي كان مكانها يقع في أقصى الشرق ، وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات ، وفقا للتصورات الخيالية الشائعة آنذاك (١٢) وقد ذكر أحدهم مانصه :«..هو

(١١) جلال الدين السيوطي ، الكلام على النيل (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٨١ جغرافيا) ورقة ٢٦

(١٢) Encyclopeadia of Islam, Art "Al Nil"

من الجنة تحت صدرة المنتهى ، ويوجد فيه من ورقها ، فيبتلعه البلطى ويرعاه ، ويحب أكله ..ومبدأ ظهوره للناس من أعين تخرج من جبل القمر المسمى بذلك لشدة ضياء القمر هناك ... قيل من أسفله وقيل من أعلاه ، له دوى لايكاد يسمعه أحد من شدته . وأضيف إلى القمر لظهور تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة ، وهو خلف خط الاستواء »(١٣)

هذا التصور الأسطورى لخروج نهر النيل من الجنة يفترض أن جزءا من مجرى هذا النهر ـ وهو الجزء الذى يمتد من منابعه الأولى فى الجنة حتى منابعه الثانية عند جبل القمر ـ يختفى عن أنظار البشر، ولا يظهر لهم سوى فى أفريقيا عند خط الاستواء . وقد تحدث آخرون عن أن أنهارا أربعة تخرج من أصل واحد عند الجنة الأرضية ، فقد أورد «ابن ظهيرة» مانصه : « ..وقد ذكر الواصفون له فى كلام طويل أن الأنهار الأربعة التى هى سيحون وجيحون والفرات والنيل تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم ، وأن تلك الأرض من أرض الجنة ، وأن تلك القبة من زبرجد ، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور »(١٤)

والرأى عندى أن هذا التصور الأسطورى للنهر ونسبته إلى أنهار الجنة

---

(١٣) المحلى ، مبدأ النيل على التحرير (مخطوط بدار الكتاب المصرية برقم ٢٨٠ جغرافيا) ورقة ٢- ورقة ٣

(١٤) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة (تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، دار الكتب المصرية ١٩٦٩م) ، ص١٦٣ .

نوع من تعبير وجدانى شعبى عن الامتنان والحب للنيل الذى وهب المصريين بلدا أحبوه وعشقوه ، ولم يرضوا عنه بديلا طوال تاريخهم الطويل . كما أن هذه المحاولات الأسطورية لإلحاق نهر النيل بالجنة نوع من التشريف والتكريم الذى أسبغته العقلية الشعبية على النهر الذى أرتبطت به حياتهم ارتباطاً كاملا سواء فى الزراعة والتجارة والصناعة ، أو فى المواصلات ، أو فى الفن والأدب.

ولما كان المصريون قد جعلوا من النهر إلها قبل اعتناقهم الإسلام والمسيحية فإنهم ظلوا يحتفظون لهذا النهر بمكانة سامية فى وجداتهم بحيث حاولت أساطيرهم أن تجعله من أنهار الجنة وهى محاولة لهم تقف عند حد الاستعانة بالتصور الأسطورى بل تعدته إلى القصص الدينى كما نرى .

هذه الأساطير التى أوردناها ليست هى كل الأساطير التى تتعلق بمنطقة منابع النيل إذ تحفل المصادر العربية التى اهتمت بهذا الموضوع بأساطير أخرى تتحدث عن منطقة منابع النيل ومجراه الأعلى .

تقول أسطورة (١٥) أن «الوليد بن دومع العليقى» قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ليسكن مايوافقه منها فلما صار إلى الشام انتهى إليه خبر مصر وعظم قدرها وأن أمرها قد صار إلى النساء وباد ملوكها فوجه غلاما له يقال له عون إلى مصر وسار إليها

---

(١٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، صص٥١ - ص٥٢ المنوفى ، الفيض المديد ، ورقة ٩ .

بعده واستباح أهلها وأخذ الأموال وقتل جماعة من كهنتها.

«ثم سمح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف مابضفتيه من الأمم فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه وخرج فى جيش عظيم فلم يمر بأمة إلا أبادها ومر على أم السودان ، وجاوزهم ، ومر على أرض الذهب فرأى فيها قضبانا نابتة من الذهب.

«ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التى ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر ، وسار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر ، وإنما سمى جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الأستواء» .

ونظر إلى النيل يخرج من تحته فيمر فى طرائق وأنهار دقاق حتى ينتهى إلى حظيرتين ، ثم يخرج منهما فى نهرين حتى ينتهى إلى حظيرة أخرى ، فإذا جاوز خط الأستواء مدته عين تخرج من ناحية نهر مهران بالهند ، وتلك العين تخرج من تحت جبل القمر إلى ذلك الوجه.

«ويقال أن نهر مهران مثل النيل يزيد وينقص ، وفيه التماسيح والأسماك التى مثل أسماك النيل . ووجد الوليد بن دومع القصر الذى فيه التماثيل النحاس التى عملها هرمس الأول فى وقت البودشير بن قفطريم بن قبطيم بن مصرايم».

هذه الرواية الأسطورية تحاول أن تؤكد ، فى شكل قصصى ، ذلك التصور الخيالى الذى تناقله الجغرافيون العرب عن بطليموس الجغرافى

لمنطقة منابع نهر النيل ، وقد أحسن العمرى حين قال : أن الأقوال فى أول مجرى النيل كثيرة ، والشائع أن واحدا ما وقف على أوله بالمشاهدة، وجعل كل واحد منهم سببا يبرر به عدم مشاهدة منطقة المنابع(١٦) .

وتقول أسطورة أخرى (١٧) أن رجلا من بنى العيص « ... يقال له حايد بن أبى شالوم بن العيص بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام ، وأنه خرج هاربا من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر ، فأقام بها سنين، فلما رأى أعاجيب نيلها ، وما يأتى به نذر لله تعالى ألا يفارق ساحله حتى يبلغ منتهاه ، ومن حيث يخرج أو يموت قبل ذلك . فسار عليه ثلاثين سنة فى العمران ، وثلاثين سنة أخرى فى الخراب حتى انتهى إلى بحر أخضر ، فنظر إلى النيل يشق مقبلا ، فصعد على البحر فإذا رجل قائم يصلى تحت شجرة من تفاح . فلما رآه استأنس به وسلم عليه ، فسأله الرجل صاحب الشجرة وقال له :من أنت ؟ قال : إنى حايد أبن أبى شالوم بن العيص بن اسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، فمن أنت ؟ قال : عمران بن فلان بن العيص . قال : فما الذى جاء بك هاهنا ياعمران ؟ قال: جاء بى الذى جاء بك حتى انتهيت إلى هذ الوضع ، فأوحى الله تعالى إلى أن أقف هنا حتى يأتينى أمره . فقال له حايد : أخبرنى

---

(١٦) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (الجزء الأول تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٩٤٢) ، ص٦٨ - ص٧١ .

(١٧) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٧١ - ص١٧٤ وقد أورد المقريزى فى خططه رواية لهذه الأسطورة بقدر من الاختصار . أنظر : الخطط ، جـ١ ، ص٥٢ . كذلك أوردها كل من السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) جـ٢ ، ص٣٤٣ - ص٣٤٦ المنوفى : الفيض المديد ، ورقة ١٠ - ١١ .

ياعمران ما انتهى اليك من أمر هذا النيل ، وهل بلغك فى الكتب أن أحدا من بنى آدم يبلغه ؟ قال له عمران : نعم ، قد بلغنى أن رجلا من بنى العيص يبلغه ،لا أظنه غيرك ياحايد ، قال له : ياعمران فأخبرنى كيف الطريق اليه ؟ فقال له عمران : لست أخبرك بشىء الأ أن تجعل لى ما أسألك . قال : وما ذاك ياعمران ؟ قال : إذا رجعت إلى وأنا حى أقمت عندى حتى يوحى الله إلى بأمره أو يتوفانى الله فتدفننى . قال : ذلك لك على، فقال له سر كما أنت على هذا البحر فانه ستأتى دابة ترى آخرها ولا ترى أولها ، فلا يهولنك أمرها ، أركبها فإنها دابة معادية للشمس ، إذا طلعت أهوت إليها لتلتقمها حتى تحول بينها وبين حجبها ، إذا غربت أهوت اليها لتلقمها ، فتذهب بك إلى جانب البحر ، فسر عليها حتى تنتهى إلى النيل ، فسر عليه ، فإنك ستبلغ أرضا من حديد جبالها وأشجارها وسهولها من حديد، فإن أنت جزتها وقعت فى أرض من نحاس ، جبالها وأشجارها وسهولها من نحاس ، فإن أنت جزتها وقعت فى أرض من فضة جبالها وأشجارها وسهولها من فضة ، فإن أنت جزتها وقعت فى أرض من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب فيها ينتهى اليك علم النيل .

«فسار حتى انتهى إلى أرض الذهب ، فإذا فيها قبة من ذهب ، لها أربعة أبواب فنظر إلى ماينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر فى القبة ، ثم ينصرف فى الأبواب الأربعة فإما ثلاثة فتغيض فى الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض . قال حايد : فيشق على وجه

الأرض وهو النيل . فشرب منه واستراح ، وأهوى إلى السور ليصعد ، فأتاه ملك فقال له : ياحايد ، قف مكان ، فقد انتهى اليك علم هذا النيل، وهذه الجنة والماء ينزل من الجنة . فقال : أريد أن أنظر ما فى الجنة. فقال له إنك لن تستطيع دخولها اليوم ياحايد ، قال : فأى شيء هذا الذى أرى ؟فقال : هذا الفلك الذى تدور فيه الشمس والقمر وهو شبه الرحى ، قال أنى أريد أن أركبه ، فأدور فيه (فقال بعض العلماء أنه ركبه حتى دار الدنيا ، وقال بعضهم لم يركبه) فقال له : ياحايد أنه سيأتيك من الجنة رزق فلا تؤثر عليه شيئا من الدنيا ، فإنه لا ينبغى لشيء من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا ، فإن فعلت بقى معك مابقى.

«فبينما هو كذلك واقف إذ نزل عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف : صنف لونه كالزبرجد الأخضر ، وصنف لونه كالياقوت الأحمر ، وصنف لونه كااللولؤ الأبيض . ثم قال : ياحايد أما أن هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها فارجع ياحايد فقد انتهى إليك علم هذا النيل . فقال : هذه الثلاثة التى تغيض فى الأرض ماهى ؟ قال أحدها الفرات والآخر دجلة ، والآخر جيحان ، فارجع.

فرجع حتى انتهى إلى الدابة التى ركبها فركبها ، فلما أهوت الشمس لتغرب قذفت به من جانب البحر ، فأقبل حتى أتى عمران ، فوجده ميتا فدفنه وأقام على قبره ثلاثة أيام فأقبل عليه شيخ مشبه بالناس أغر من السجود(١٨) ، فسلم عليه وقال : ياحايد ، ما انتهى اليك من علم هذا

(١٨) بجبهته غرة من أثر السجود .

النيل ؟ فأخبره فقال له :هكذا نجده فى الكتب ثم أخرج بعض التفاح وقال فى عينيه :الا تأكل منه؟ قال معى رزق قد أعطيته من الجنة ونهيت إلا أؤثر عليه شيئا من الدنيا . قال : صدقت ياحايد ، ولا ينبغى لشىء من الجنة أن يؤثر عليه إلا بشىء من الجنة وهل رأيت فى الدنيا مثل هذا التفاح ؟ إنما أنبت لعمران فى الأرض وليست فى الدنيا وإنما هذه الشجرة من الجنة ، أخرجها الله تعالى لعمران يأكل منها تفاحة ، فعضها ، فلما عضها غض . يده قال له : أتعرفه ؟ (يقصد التفاح) هو الذى أخرج أباك من الجنة . أما أنك لو سلمت هذا الذى كان معك لأكل منه أهل الدنيا قبل أن ينفد . ثم أقبل حايد حتى دخل مصر ، فأخبرهم بهذا الخبر. ثم مات حايد بأرض مصر» .

هذه القصة الأسطورية تعكس التصور الشعبى لمنطقة منابع النيل التى جعلوها جزءا من الجنة . والحوار المثير بين أبطال هذه القصة يوضح لنا أبعاد الاحترام والحب الذى حمله الوجدان الشعبى لنهر النيل قوام الحياة المصرية ومصدر أستمرارها ومن المهم أن نشير إلى أن هذا التراث الأسطورى المتعلق بنهر النيل لم يكن وليد الفترة التى اتخذت فيها مصر ثقافتها العربية وأعتنقت الدين الإسلامى ولكنه استمرار لموروث شعبى تناقلته الأجيال عبر تاريخ مصر . وهذا الموروث الشعبى يخلط بين أساطير مصرية قديمة ، وتصورات شائعة عن الجنة وثمارها ، وبين مفهوم المعرفة المحرمة التى تربط بين التفاحة وخروج آدم من الجنة . وهكذا فإن التصور الشعبى عن منطقة منابع نهر النيل كما اتضح من نصوص

الأساطير العربية كان فى حقيقته نتاجا لخيال المصريين ووجدانهم بسبب العجز عن معرفة الحقائق الجغرافية حول منطقة أعالى نهر النيل ومنابعه . ومن ناحية أخرى ، كانت هذه الأساطير نوعا من الموروث الشعبى المصرى حول النيل ، والذى ظل موضوعا للتداول الشفوى والمكتوب طوال عصور التاريخ المصرى ، وإن جرت عليه بعض التحويرات والتعديلات بحيث يتوافق مع التطورات الاجتماعية والثقافية ، وبحيث يلبى الحاجة الاجتماعية والثقافية لأبناء هذا المجتمع. وقد حرص الذين كتبوا عن «فضائل مصر» فى المصادر التاريخية والجغرافية العربية ، على أن يجمعوا هذا التراث الشعبى ويدونوه فى كتبهم باعتباره نوعا من الحقاق المسلم بها .

وإذا كان المجرى الأعلى لنهر النيل ومنطقة المنابع قد احتلا هذه المكانة فى نصوص الأساطير العربية ، فإن فيضان النهر السنوى قد أثار اهتمام كل من كتبوا عن «فضائل مصر» وتاريخها وجغرافيتها من المؤلفين العرب . وكان الفيضان وأسبابه مرتعا لخيال هؤلاء وأولئك جميعا ومجالا لتخمينهم وقد اعتمدوا فى هذا المجال على مانقلوه من كتب القدماء ، وماجمعوه من الموروث الشعبى المتداول . بيد أن بعضهم اقترب من الحقيقة ، أو كاد . فقد ذكر بعضهم أن سبب الزيادة نزول الأمطار فوق جبال الحبشة «... فيأتى مددها إلى مصر صيفا » ولكن البعض تصور أن رياح الشمال تهب فترتفع مياه البحر المتوسط لتحجز مياه النيل حتى يفيض ويروى البلاد ، ثم تهب رياح الجنوب لتجعل مياه

النيل تصب فى البحر المتوسط (١٩) كما ذكر البعض أن زيادة نهر النيل زمن الفيضان من عيون على شاطئية « ..رآها من سافر ، ولحق بأعاليه .. » (٢٠) كما أن كتابات أولئك المؤلفين حاولت إكساب النيل طابع القدسية فى هذا الصدد أيضا ، فقد ذكر بعضهم أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمد نهر النيل بمياهها وقت الفيضان ، فإذا اكتفى الناس برى أراضيهم وزراعاتهم أمر الله النيل أن يعود كما كان (٢١) وربما يكون هذا التصور قد رسخ فى أذهان الناس آنذاك بسبب ما لاحظوه من أن النيل كان يزيد فى فصل الصيف ، أى فى الوقت الذى تنقص فيه مياه سائر الأنهار التى يعرفونها .

وعن محاولات كشف منابع النيل بعد الفتح الاسلامى لمصر ، أورد المؤرخون قصة مؤداها أن بعض الخلفاء أرسل عدة رجال لكشف منابع نهر النيل ، ولما وصلت هذه المجموعة إلى جبل القمر صعد أولهم إلى أعلاه حيث ضحك وصفق ثم مضى ولم يعد . وصعد رجل آخر ففعل مثل الأول ثم صعد رجل ثالث وربطه رفاقه بحبل جعلوه معهم حتى لا يمضى مثل سابقيه ، فخرس ومات من ساعته (٢٢) . كما تذكر قصة أخرى أن السلطان «الصالح نجم الدين أيوب» أراد أن يعرف أصل النيل ، ومن

---

(١٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٥٨ ، ابن ظهيرة الفضائل الباهرة ، ص١٦٤ – ص ١٦٥ ، السيوطى ، الكلام على النيل ، ورقة ٢٤ ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣٤٨ .

(٢٠) الكتبى ، مباهج الفكر ، جـ١ ورقة ٨٥ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٦٥ ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٥٨

(٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ص٤٩ – ص٥٠ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص١٦٩.

(٢٢) المحلى ، مبدأ النيل على التحرير ، ورقة ٢ – ٣ .

أين ينبع ، فأمر بشراء عبيد صغار من الزنوج ، وأمر بأن يتولى رعايتهم وتعليمهم صيادو السمك والتجار حتى يتعلموا صنعة البحر وصيد السمك ، ليكون لهم غذاء فى رحلتهم إلى منطقة منابع نهر النيل، فإذا مهروا في ذلك يتم صنع مراكب لهم . بحجم صغير لكى يركبوها ويأتوه بخبر النيل . ولكن تلك المحاولة لم يقدر لها النجاح(٢٣).

هاتان القصتان توضحان مدى الاهتمام الذى استحوذ على المصريين لمعرفة منطقة منابع نهر النيل ، وعلى الرغم من الطابع الأسطورى الذى يغلف القصة الأولى، فإن القصة الثانية يمكن أن تكون قصة صحيحة . لقد ظلت «مسألة النيل» أو «سر النيل» مغلقة أمام الشعب الذى ارتبطت حياته، وجودا وعدما، بنهر النيل بسبب الأحراش الكثيفة والغابات الموحشة والحيوانات المفترسة التى حالت دون الكشف الحقيقى لمنطقة منابع النيل ومجراه الأعلى فى ذلك الزمان . وكان طبيعيا أن يلجأ الخيال الشعبى إلى الأسطورة لتعويض هذا النقص فى معلوماته عن نهر النيل . لقد رفضت العقلية الشعبية فكرة الاعتراف بالجهل فيما يتعلق بنهر النيل الذى قامت حوله حياة شعب بأكمله . ولأن الوجدان الشعبى فى مصر العربية الاسلامية كان مايزال يحمل أصداء الألوهية والقدسية التى أضفاها المصريون القدماء على نيلهم الحبيب فإن الكتابات العربية عن النيل ربطت النهر بالجنة على النحو الذى جعله يحتفظ بمكانته السامية بين أنهار الدنيا .

---

(٢٣) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٦٤ .

وإذا كان نهر النيل قد حظى بنصيب موفور فى الأساطير العربية ، فإنه احتل مكانة مهمة فى القصص الدينى الذى رواه المفسرون وغيرهم . واللافت للنظر أن هناك محاولة ثابتة ومستمرة من جانب المؤرخين والجغرافيين العرب للربط بين نهر النيل والقصص الدينى، سواء كانت تلك القصص واردة فى تفسير القرآن الكريم أو فى الأحاديث المنسوبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، أو ضمن المأثور عن الصحابة والسلف الصالح . فقد اهتم الكتاب العرب ببيان أنه لم يرد اسم نهر سوى نهر النيل فى القرآن الكريم . فقد جاء ذكره فى قوله تعالى «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين » (٢٤) ويقول المفسرون أن اليم هنا (أى البحر) هو نهر النيل . وفى قوله تعالى عن حكاية فرعون « .. أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . وقد فسر بعض المفسرين هذه الآية الكريمة بأن أرض مصر أيام فرعون كانت عامرة بالقناطر والجسور بتدبير وتقدير ، حتى أن الماء يجرى تحت منازلهم وأقبيتها فيحبسونه كيف شاؤوا ، ويطلقونه كيف شاؤوا . كذلك ورد ذكر نهر النيل فى قوله تعالى «فأخرجناهم من جنات وعيون ، كنوز ومقام كريم».(٢٥) وتفسير هذه الآية فى رأى المفسرين أن الجنان كانت بأرض مصر بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعا ما بين

---

(٢٤) سورة القصص ، آية ٧ .

(٢٥) سورة الشعراء ، آية ٥٧ - ٥٨.

أسوان إلى رشيد (٢٦) وقد فسر البعض قوله تعالى أخبارا عن فرعون الذى حدد لموسى عليه السلام موعدا للاجتماع . «قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى»(٢٧) بأنه يعنى الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج ، إذ جرت عادة المصريين على الاجتماع للاحتفال بوفاء النهر فى مثل هذا الوقت من النهار (٢٨) .

كذلك امتلأت المؤلفات المعاصرة بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تنسب نهر النيل إلى أنهار الجنة ، وتضفى عليه صفة القدسية ، وتخلع عليه صفة الإيمان (٢٩) ومن طبيعة الأمور أن النهر الذى كان إلها فى عصور الوثنية (حابى) لا يمكن أن يحتفظ بألوهيته فى ظل الاسلام دين التوحيد ، ولكن أهمية نهر النيل فى حياة البلاد وساكنيها جعلت النهر يحتفظ ببعض من صفات القدسية فى وجدانهم وفى آدابهم ، فهو من أنهار الجنة ، وسيد الأنهار ، وهو النهر المؤمن فى الأحاديث التى تسبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والسلف الصالح . وقد نسب إلي النبى قوله فى حديث المعراج «.. ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة

---

(٢٦) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣٤٠ - ص٣٤١ ، الكلام عن النيل ، ورقة ١٣ ، ١٤ ، كوكب الروضة ، ورقة ٤٩ .

(٢٧) سورة طه ، آية ٥٩ .

(٢٨) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ١ ، ص٢٦٤ ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٦٠ ، الكتبى ، مباهج الفكر ، جـ١ ، ورقة ٨٦ .

(٢٩) الحجازى ، نيل الرائد فى النيل الزائد ، ورقة ٨ ، السيوطى ، الكلام على النيل ، ورقة ١٣ - ١٩ ، المحلى ، مبدأ النيل ، ورقة ٧ - ٩ .

أنهار، نهران ظاهران ونهران باطنان . قلت ماهذا ياجبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فهما النيل والفرات... »(٣٠) .

ونقل المقريزي في خططه ماجاء في كتاب غريب الحديث لابن قتيبة في حديثه عليه الصلاة والسلام : «نهران مؤمنان ، ونهران كافران ، أما المؤمنان فالنيل والفرات وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ » . وتفسير ذلك، في رأيهم، أن النيل والفرات يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب في ذلك ولا مؤونة ، وجعل نهر دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئا قليلا، وذلك القليل بتعب ومؤونة . فهذان في الخير والنفع كالمؤمنين وهذان في قلة الخير والنفع كالكافرين (٣١) . وورد في الأحاديث المنسوبة إلى النبي أيضا أن جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه « .. فكان النيل على جناحه الأيسر ، والفرات على جناحه الأيمن . وقال بعض الفضلاء أن هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات لأن الشيء الثقيل من عادته أن يحمل على الجانب الأيمن والخفيف على الجانب الأيسر وكون جبريل حمل النيل على جناحه الأيسر دليل خفته .. »(٣٢) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كل الأحاديث التي نسبت إلى الرسول

---

(٣٠) المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص٥٠ ، الكتبي ، مباهج الفكر ، جـ١ ،ورقة ٨٤ ، النويري ، نهاية الأرب ، جـ١ ، ص٢٦٣ ، المنوفي ، الفيض المديد ، ورقة ٩.

(٣١) المقريزي ، الخطط جـ١ ، ص٥٠ .

(٣٢) محمد بن احمد بن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة (كمبردج ١٩٣٧م) ، ص٢٣٩ – ص٢٤٠ .

صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد ؛ ولكن هذه الأحاديث تعكس أمرا مهما يتعلق بموقف الوجدان المصرى من نهر النيل ، ومدى مكانة النهر فى العقلية الشعبية وعواطف الناس التى تتعلق بالنهر الخالد وقد انعكس هذا الموقف الوجدانى الشعبى فى الأدبيات العربية التى كتبت حول مصر ونيلها . وقد حاول المؤرخون والجغرافيون العرب إضفاء صفة القداسة والإيمان على النيل ، فقد تصوروه يجرى بوحى من الله ويعود بوحى منه سبحانه وتعالى ، وهو فى نظرهم ، وفى كتاباتهم ، سيد الأنهار الذى سخر الله له كل الأنهار لتمده بمائها وقت زيادته . كذلك فإن الأدبيات العربية صورت النهر فى صورة النهر المؤمن ، كما جعله البعض نهر الخمر لدى أهل الجنة (٣٣) .

وتروى إحدى القصص الدينية أنه لما خلق الله آدم عليه السلام مثل له الدنيا ، مشرقها ومغربها ، وسهولها وجبالها ، وأنهارها وأبحارها ، وبنا ءها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى مصر رأى أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة فدعا للنيل بالبركة ، ودعا فى أرضه ، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات (٣٤) .

كما تحكى قصة أخرى أن النيل هبط فى زمن فرعون ، وطلب الناس

---

(٣٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٤٩ ، السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٥٠ - ٥١ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٠٧ ، الحجازى ، نيل الرائد ، ورقة ٨ - ٩ ، المنوفى ، الفيض المديد فى النيل السعيد ، ورقة ١٢.

(٣٤) السيوطى ، كوكب الروضة ، ص٥٠ - ص٥١ .

منه أن يجريه لهم ، ولكنه ردهم بحجة عدم رضائه عنهم وغضبه عليهم. ولما هددوه باتخاذ إله غيره خر ساجدا لله تعالى ، وألصق خده بالأرض، وأخذ يتذلل إلى الله تعالى أن يجرى النيل ، فأجراه كما لم يجر من قبل، فخرج فرعون إلى قومه وقال لهم : أنى أجريت لكم النيل فخروا له ساجدين . وجاء جبريل وسأله عن جزاء عبد كان عنده وائتمنه ، ولكن العبد خان الأمانة ، فقال فرعون أن جزاء هذا العبد أن يغرق فى بحر القلزم وحصل منه جبريل على كتاب بذلك . فلما كان يوم البحر (أى اليوم الذى غرق فيه فرعون وجنوده فى مياه البحر حين خرجوا يطاردون موسى وقومه) جاء جبريل بالكتاب وقال لفرعون (خذ هذا ماحكمت به على نفسك) (٣٥) .

وأسهب المؤرخون والجغرافيون وكتاب الفضائل فى وصف الأسماك والحيوانات المائية التى تعيش فى نهر النيل ، واعتبروا بعضها من العجائب . ومن هذه الحيوانات المائية التمساح الذى اعتقدوا أنه لا يوجد سوى فى نهر النيل ونهر مهران ، وكان ذلك دليلا ، فى رأيهم ، على أن النهرين يخرجان من منبع واحد قرب الجنة الأرضية . كما تحدثوا فى كتاباتهم عن السقنقور الذى وصفوه بأنه حيوان مائى يتواجد فى منطقة أسوان والنوبة ، وهو شبيه بالتمساح ومن نسله إذا وضعه فى الماء صار تمساحا فإذا اتجه إلى البر صار سقنقورا . ومن بين أسماك النيل التى ذكرها أولئك الكتاب سمكة إسمها «الرعادة» تصيب من يلمسها بالرعشة

(٣٥) السيوطى حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣٤٠ - ص ٣٤١ .

ولذلك يعمد الصيادون إلى إخراجها من شباكهم فور صيدها .

ومن الكائنات المائية التى دارت حولها خرافاتهم وأساطيرهم سمكة زعموا أنها تعيش فى نهر النيل ، وهى شبيهة بإنسان ذى لحية طويل وأطلقوا على تلك السمكة المزعومة إسم «شيخ البحر» وتقول الكتابات التى تناولتها أنها سمكة مشئومة إذا ظهرت فى مكان أعقب ظهورها القحط ، والموت ، والفتن «وقيل أن دمياط ماتنكب حتى يظهر عندها ...»(٣٦)

هكذا رأينا فى الصفحات السابقة أن مكانة نهر النيل فى الوجدان المصرى كانت سامية بالقدر الذى جعله يحظى بمكانة مهمة فى الأساطير العربية ، والقصص الدينى ، وغير ذلك من الأدبيات العربية التى جعلت من مصر ونيلها موضوعا لها .

هذه المكانة السامية للنيل فى الأدبيات العربية تعكس ، فى رأينا ، الموقف الشعبى من نهر النيل الذى عاش المصريون بفضله يشربون مياهه، ويروون زروعهم ويسقون حيواناتهم . ومن البديهى أن نهر النيل سبب الوجود المصرى ، إذ أن النهر جعل من الممكن وجود ذلك المجتمع البشرى الكثيف وسط صحراوات شمال شرق إفريقيا وجنوب غرب آسيا، وعوض النقص الصارخ فى كمية الأمطار التى تسقط فوق هذه الصحراوات بتوفير مصدر دائم للرى . ومن ثم كانت الحضارة المصرية فى

---

(٣٦) السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٧١ - ٧٤ حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٦٩ - ص٧٤ ، المنوفى ، الفيض المديد ، ورقة ١٩ - ٢٤ .

شتى مراحلها حضارة زراعية نهرية تحيط بها الصحراء عن شرق وعن غرب ، ويحدهم البحر المتوسط شمالا ، على حين كانت أدغال افريقيا المدارية تمثل حدود وادى النيل جنوبا . وقد يسر هذا للمصريين قدرا من الاستقرار والثراء النسبى طوال مراحل تاريخهم الطويل .

وقد أدرك الوجدان الشعبى هذه الحقائق وعايشها منذ فجر التاريخ المصرى على نحو ما تكشفه الأساطير الفرعونية ، وعندما تحولت مصر إلى مجتمع مسلم دينا ، عربى ثقافة وإنتماء ، تسربت مظاهر تقديس النيل وتبجيله فى أشكال جديدة توافق ثقافة المجتمع فى طورها العربى الإسلامى . وهكذا جاءت الأساطير والقصص الدينى، والخرافات لتصنع نسيجا نرى فيه بعض تفاصيل الموقف الشعبى تجاه النهر الذى قامت عليه حياة المصريين ونشاطهم الاجتماعى.



الشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس

يعتبر السلطان «الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى » بحق المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك التى ظلت تقوم بدور القوة الضاربة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان . إذ أن بيبرس بدأ تاريخه السياسى بالعمل على توحيد الجبهة العربية الإسلامية فى مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية على حد سواء . وإذا كانت معركة المنصورة وفارسكور ضد الحملة الصليبية السابعة قد أثبتت جدارة فرسان المماليك . ثم جاءت معركة عين جالوت بعدها بعشر سنوات لتؤكد أهميتهم ، فإن هذا لم يكن كافيا فى نظر المعاصرين لتبرير استيلاء المماليك على الحكم . ومن ثم فإن الجهود التى بذلها الظاهر بيبرس لتدعيم أركان الحكم ، وإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، وتوحيد المنطقة العربية فى مواجهة الصليبيين ، جعل من دولة سلاطين المماليك قوة عالمية مهابة تحظى باحترام القوى العالمية المعاصرة على الصعيد الخارجى ، كما جعل السلطان الظاهر بيبرس يحتل مكانة طيبة فى وجدان المصريين ، بحيث نسج الخيال الشعبى سيرة للسلطان الظاهر بيبرس ظلت أجيال المصريين تستمع إلى رواتها وتستمتع بأحداثها حتى سنوات قليلة مضت ، حين أزاحت أجهزة الإعلام الحديثة هذا النمط من الممارسات الثقافية جانبا ، وقدمت بدلا منه المسلسلات المسموعة والمرئية التى صارت تقوم بنفس الدور الاجتماعى ـ الثقافى الذى كانت تؤديه الملاحم والسير الشعبية قديما .

على أية حال فإن خيال الفنان الشعبى المصرى فى « سيرة الظاهر بيبرس » جعل من السلطان رمزا حمله المصريون كل رموزهم الاجتماعية، وصبغوه بالقيم والمثل ، والأخلاقيات التى تمثلهم كما أحاطه الفنان الشعبى بمجموعة من الشخصيات الشعبية التى تجسد الشعب المصرى ، تحيطه بالرعاية وتمهد الطريق أمامه ، وتبذل له النصيحة ، بل تقاتل من أجله ضد رموز الخديعة والشر والعداوة .

وعلى الرغم من أن بيبرس ، الفارس والأمير والسلطان ، كان شخصية ملء العين والقلب على مسرح التاريخ ، فإن بيبرس الطفل والصبى يتوه بين ضبابية الغموض وأستار الحكايات الأسطورية . ذلك أنه كان من آحاد الناس ، ولد لأن فقيرا بذات مـــاء أراد أن يطفىء نار أيامه القاسية فى حضن فقيرة . ولم يكن المؤرخون فى ذلك الزمان يهتمون بالفقراء والبسطاء . كان معظم المؤرخين فى معية الحكام والسلاطين يرصدون منهم الحركة والسكون . أما آحاد الناس ، صناع التاريخ الحقيقيين ، فقد أهملتهم أقلام المؤرخين . كان الناس يصنعون التاريخ ويسرقه الحكام . ومن ثم ، لم يكن غريبا أن يهمل التاريخ شأن مولد طفل فقير يخطفه تجار الرقيق ليباع فى أسواق النخاسة ، ولكنه حين يكبر ينتزع لنفسه دورا على مسرح التاريخ يجعله محور اهتمام التاريخ والمؤرخين زمنا يطول .

ذلكم هو السلطان الظاهر بيبرس الذى أحبه المصريون . وصاغ فنانهم

الشعبى سيرة له دون سائر السلاطين . وفى «السيرة الظاهرية» جعل المصريون للظاهر بيبرس مكانة مهمة ورائعة خصوه بها دون سائر حكامهم فى تلك الفترة التاريخية ، كما أنهم جعلوا كافة الشخصيات التاريخية فى تلك الفترة وما سبقها شخوصا ثانوية فى خدمة البطل الظاهر بيبرس الذى صوره وكأنه عصر بأكمله .

والناظر فى « سيرة الظاهر بيبرس » أو « السيرة الظاهرية » سوف يكتشف دون عناء شديد أن البطل الحقيقى فى هذه السيرة هو الشعب المصرى ممثلا فى الشخصيات الشعبية التى تلتف حول الظاهر بيبرس منذ البداية وهو بعد فى ميعة الصبا وعلى أعتاب مرحلة الشباب . هذه الشخصيات الشعبية هى التى تتولى بيبرس بالرعاية ، وتحدد له معالم الطريق ، وتحميه من غائلة المكائد والدسائس التى يتعرض لها باستمرار.

وتتنوع هذه الشخصيات ما بين أقطاب الصوفية مثل السيد البدوى وابراهيم الدسوقى وغيرهما إلى شخصيات بسيطة تشتغل بالحرف التى عرفها المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، هذه الشخصيات المصرية تلعب الأدوار الرئيسية فى سيرة الظاهر بيبرس بحيث نجدها فى كثير من مشاهد السيرة المحرك الأساسى للأحداث والوقائع . والفنان الشعبى فى « السيرة الظاهرية » أعاد إنتاج الشخصيات التاريخية بالشكل الذى يخدم الهدف الاجتماعى/ الثقافى للسيرة من ناحية ، ويبرز دور الفرد العادى من عامة المصريين من ناحية أخرى .

لقد أهمل التاريخ والمؤرخون الرسميون دور المصريين في صنع تاريخهم ، وأبى الفنان الشعبي إلا أن يبرز هذا الدور ويجعل للشعب المصرى الصدارة فى صياغة هذه الفترة المهمة من تاريخنا العريق . ولعل الراوى ، أو الرواة ، أراد أن يضفى على روايته المصداقية والجدية التى تتميز بها المؤلفات التاريخية التقليدية . فذكر فى صدر روايته ما نصه : « تأليف السادات الكرام ، المشهورين بالعلم وعلو المقام ، نبراس الأفهام، الدينارى ، ووافقه على ذلك الدويدارى ، وهما بذلك أعظم دارى ، ثم ناظر الجيش وكاتم السر ، والصاحب . فكل من هؤلاء له بحر فيها وما يخصها من معانيها ومبانيها ، وما أرخوه وما شاهدوه ، وما نقلوه عن السادة إخوانهم الذين يعتمدون من كلام الصدق عليهم ، وما عاينوه من كرامات الأولياء ، ومعجزات الأنبياء .. » (١)

هكذا تبدأ السيرة بمحاولة للإيهام بأنها اعتمدت على مصادر تاريخية معتمدة ، ولكننا نعتقد أن هذا النص قد وضع بقصد التأثير على السامعين . وعلى الرغم من هذا فإنه من المحتمل أن يكون الراوى ، أو الرواة ، يستخدمون أسماء مؤرخين حقيقيين عاشوا فى تلك الفترة التاريخية وسجلوا أحداثها . فمن المعروف أن « الأمير ركن الدين

* حين نذكر اسم « شجر الدر » (بدون تاء المربوطة) تكون الاشارة الي الشخصية التاريخية لأن هذا هو اسمها في المصادر التاريخية . وعندما نذكر « شجرة الدر» تكون الاشارة الي الشخصية الفنية في السيرة .

(١) سيرة الظاهر بيبرس (طبعة محمد صبيح - بدون تاريخ) المجلد الأول ص٢

بيبرس الدوادار الناصرى المنصورى » قد سجل أحداث هذه الفترة حتى عصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وسجل أحداثها فى كتابيه «زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة» (٢) و « التحفة الملوكية فى الدولة التركية » (٣) وربما تكون السيرة تشير إليه بكلمة « الدويدارى » ، وربما يكون الأمر مجرد استخدام لأسماء وألقاب بقصد إحداث التأثير على السامعين .

واللافت للنظر حقا أن « سيرة الظاهر بيبرس » تمهد لأحداثها بقصيدة طويلة عن فضائل مصر ، بحيث يحبها بيبرس ، وهو ما يزال فى بلاد الشام ، ويتمنى أن يطير إليها (٤) وهنا ينبغى أن نلاحظ أن السيرة الشعبية لم تخرج عن القاعدة التى أتبعها المؤرخون المصريون آنذاك فى حديثهم عن تاريخ بلادهم منذ الفتح الاسلامى . فقد حرصوا على التنويه بفضائل مصر فى بداية كتبهم ، وصار هذا تقليداً فى الكتابة عن تاريخ مصر منذ « عبد الرحمن بن عبد الحكم » حتى نهاية عصر سلاطين المماليك على أقل تقدير . وقد كان من المناسب تماما ، للسيرة الظاهرية (التى تجسد دور عامة المصريين فى صنع تاريخ تلك الفترة)

---

(٢) مخطوط مصور بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨.

(٣) مخطوط مصور بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٩.

وعن هذا المؤرخ وكتبه انظر : قاسم عبد قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ - قراءة فى التراث التاريخى العربى . دار المعارف ١٩٨٥م - طبعة ثانية) ، ص١١٩ - ١٣٢ .

(٤) السيرة ، جـ١ ص١٦٧ - ص١٦٨ .

أن يبدأ روايته بالحديث عن فضائل مصر .

وعلى الرغم من أن السيرة حورت كثيرا فى شخصية السلطان الظاهر بيبرس نفسه . بحيث انتحلت له نسبا ملوكيا ، وجعلت الإسلام دين آبائه وأجداده على مدى أجيال عدة ، كما جعلت له اسما عربيا ، وجعلته نتاج ثقافة عربية وتربية عربية إسلامية تتبدى فى فصاحة لسانه وحسن بيانه والقصائد التى يقولها فى كثير من المواقف ، ويتوجها صوت حسن فى قراءة القرآن الكريم بحيث يتوقف السائرون وعابرو الطريق أمام المنزل الذى ينبعث منه صوت تلاوته - على الرغم من هذا وكثير غيره فإننا فى هذه الدراسة لن نتناول شخصية الظاهر بيبرس ، لأن البناء الفنى لها فى السيرة يحتاج إلى دراسة مستقلة ، ومن ثم فإننا سنقصر اهتمامنا على الشخصيات التاريخية الأخرى التى أعاد الوجدان الشعبى إنتاجها فى « سيرة الظاهر بيبرس » بحيث تخدم الهدف الاجتماعى / الثقافى لهذه السيرة .

ويهمنى ، بداية ، أن أؤكد أن هذه الدراسة مجموعة من التساؤلات وعلامات الأستفهام والتعجب أكثر مما تقدم من إجابات . كما أنها لا تزعم تقديم الحلول لكافة المشكلات التى يثيرها التركيب الدرامى لشخصيات «السيرة الظاهرية» ورب قائل بأن هذا النمط من صياغة شخوص العمل الفنى لا يدخل فى نطاق البحث التاريخى ، ولكن البحث عن العلاقة بين كيفية بناء الخيال الشعبى للشخصيات التاريخية وإعادة

إنتاج الأحداث التاريخية بشكل يوافق الوجدان الشعبى من جهة ، وبين الدور التاريخى الفعلى لهذه الشخصيات من جهة أخرى ، وقد ينير السبيل أمامنا للتعرف على المواقف الوجدانية والشعورية الحقيقية للشعب إزاء الشخصيات والأحداث التاريخية . ومن ثم فإن بحثنا لا يستهدف كشف الأبعاد التاريخية التقليدية لأبطال التاريخ المصرى والعربى فى تلك الفترة من تاريخنا ، وإنما يسعى إلى رسم صورة عامة وتقريبية لموقف جماهير المصريين من أحداث تلك الفترة التاريخية وأبطالها الذين حرص المؤرخون على تدوين أعمالهم : جليلها وحقيرها.

تبدأ أحداث « سيرة الظاهر بيبرس » برواية فرعية مكانها بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وهذه الرواية الفرعية تمهد للغزو المغولى لبغداد ، فيقول الراوى : « كان من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ،بعد أن توفى إلى رحمة الله المعتصم بالله وتولى الخلافة بعده الواثق بالله ولده ومات إلى رحمة الله ، وتولى المقتدى بالله ، وهو شعبان المقتدى بأرض بغداد ، وكان له وزير يقال له « العلقمى .. » ولا عبرة هنا بالأسماء والتتابع التاريخى ، فهو لا يهم الراوى سوى من حيث التأثير على السامعين من ناحية ، والتمهيد للدخول فى الحديث الفنى - وليس التاريخى - من ناحية أخرى . وتستمر الرواية لتقول أن نزاعا نشب بين ابن الخليفة وابن الوزير العلقمى بسبب اللعب بالحمام وتطييره،

فأمر الخليفة بذبح حمام ابن الوزير مما أغضب الوزير العلقمي الذى أرسل إلى « منكتم » ملك المغول يدعوه إلى غزو بغداد (٥) .

واللافت للنظر هنا أن الخيال الشعبى يختار سببا تافها للغزو المغولى، وهو النزاع على الحمام بين ابن الخليفة وابن الوزير . فهل يمكن أن تكون تلك إشارة إلى حال اللهو والتفاهة التى كان عليها الخليفة «المعتصم بالله عبد الله » آخر الخلفاء العباسيين الذى ذبحه المغول (٦) ؟ أم أنها رمز لمدى تدهور أحوال الخلافة العباسية فى سنوات عمرها الأخيرة؟ ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الوزير « ابن العلقمى »شخصية تاريخية حقيقية أشارت بعض المصادر العربية إلى تآمره مع هولاكو لكى يرسل بعض جواسيسه إلى عاصمة الخلافة العباسية حيث عقدوا اتفاقا مريبا معه ومع غيره من الأمراء « .. والخليفة فى لهوه لا يعبأ بشىء .. » .

كذلك نجد أن السيرة تجعل زعيم المغول « منكتم » وتجعل له ولدين. هما « هلاون » و« كلب زيد » وتجعله حفيدا لكسرى أنو شروان الامبراطور الفارسي الشهير فى كتب المؤرخين العرب ، كما تجعله من عبدة النار وتصفه بأنه « .. فارس جبار وبطل مغوار ،لايعد له على جار ، وهو فارس شديد وبطل صنديد ، وشيطان مريد ، وكان يعبد النار

(٥) السيرة جـ١ ، ص٤ .

(٦) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ص ٢٢

دون الملك الجبار ، وعنده عساكر بعدد قطر البحار وكلهم منكبين على عبادة النار .. » كما يقول الراوى فى موضع آخر « .. فسار الملعون هلاون فى ستين ألف من الفرسان ، وكلهم يعبدون النيران دون الملك الديان ، راكبين خيول مثل الغيلان ، وساروا يقطعون البراري والوهاد ، طالبين أرض بغداد .. » ثم تقول السيرة أن الخليفة خرج بالجيش لقتال التتار ولكن المعركة انتهت بهزيمة المسلمين وأسر الخليفة . ثم أمر الوزير « العلقمى » بفتح أبواب المدينة ، وخرج فى جماعة من رجالة للقاء « هلاون » الذى كافأه على خيانته بأن صلبه على باب المدينة . وهنا نجد الفنان الشعبى يدين الخيانة فى مشهد رسم بعناية لكى يحوز القبول لدى عامة الناس وخاصتهم . تقول الرواية أن هلاون وبخ الوزير الخائن بقوله « .. ياويلك إذا كنت فعلت فى من هم فى دينك لأجل حمامه ، فتهلكنا نحن الآخرين من أجل ذبابة ، وأنت لم يكن فيك خير فى دينك وأهل ملتك ، وكيف يكون لك خير فينا .. ثم أن هلاون صاح على رجاله ، وقال لهم خذوه وعلى باب المدينة اصلبوه .. » (٧) .

هذه الصورة الرهيبة التى رسمتها « سيرة الظاهر بيبرس » للتتار توافق إلى حد كبير تلك الصورة المفزعة التى صورتها أقلام المؤرخين المعاصرين لأولئك القادمين من سهوب الاستبس فى آسيا ، يزرعون الموت والدمار والفزع فى بلدان العالم آنذاك . ومن المهم أن نشير هنا إلى

(٧) السيرة جـ١ ، ص٦ - ص٨ .

أن خان التتار الأعظم « منكو خان » حفيد جنكيز خان ، هو الذى حرفت السيرة اسمه إلى منكتم ، وكان هذا الخان قد أرسل حملتين فى منتصف القرن السابع الهجرى (١٣م) ، إحداهما ضد الصين والأخرى بقيادة هولاكو (هلاون) لتدمير الخلافة العباسية . وقد تمكن هولاكو فعلا من تدمير الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨م)وسالت الدماء أنهارا فى العاصمة التى كان اسمها ذات يوم مرادفا للحضارة والقوة والمجد . وكان وقع الصدمة مريرا وعنيفا فى نفوس المسلمين الذين وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم ، وخيل للمسلمين « .. أن العالم على وشك الانحلال ، وأن الساعة آتية عن قريب .. » على حد تعبير مؤرخ معاصر.

وربما كانت ذكريات هذا الهول هى التى جعلت الخيال الشعبى يحتفظ بهذه الصورة الرهيبة للتتار فى « السيرة الظاهرية ». والمهم هنا أن الفنان الشعبى اختار هذه الحادثة الكبرى فى تاريخ المسلمين لتكون بمثابة التمهيد للسيرة ، ولتكون مدخلا مناسبا لانتقال الأحداث إلى مسرح السيرة الرئيسى فى مصر وبلاد الشام وعلى الرغم من أن الفنان الشعبى لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة فى هذه المقدمة ، فإنه أطلق لنفسه العنان ومارس قدرا أكبر من الحرية فى نسج بقية الأحداث بالشكل الذى تلتقى مع شخصيات تاريخية أخرى من أبطال تلك الفترة فى صياغة جديدة تعبر عن الوجدان الشعبى أكثر مما تفصح عن الحقيقة التاريخية .

وتختار السيرة شكلا مثيرا لظهور « صلاح الدين الأيوبى » على مسرح الأحداث . وهنا نجد الخيال الشعبى يتصرف بحرية تامة فى الأحداث التاريخية وأماكن وقوعها . وهنا ينبغى أن نتنبه إلى أن الفنان الشعبى لا يهتم برواية التاريخ رواية صحيحة . (فهو ليس مؤرخا بأى حال من الأحوال) ، وإنما يوظف الأسماء والأماكن والأحداث التاريخية فى خدمة هدفه الفنى . ومهمتنا هنا ليست البحث عن وقائع التاريخ ، ولكن أن نحاول رصد الدلالات الاجتماعية والمغزى الثقافى الكامن وراء هذا النمط من الاستخدام الشعبى للتاريخ وصولا إلى فهم حقيقة النفسية الشعبية والموقف الوجدانى للناس تجاه حوادث التاريخ وشخوصه.

ولنعد إلى السيرة . إذ يحكى الراوى أن « هلاون » ما كاد يجلس على عرش الخلافة العباسية بعد دخول بغداد ساعة زمن « .. حتى دخل عليه من باب القصر خمسة وسبعون من الأكراد ، وعليهم آثار العبادة ، وهم متقلدين سيوف من خشب ، وهم ينادون : لا اله الا الله محمد رسول الله ، فلما رآهم أجمعين اللعين هلاون قال لمن حوله : ما هؤلاء ؟ فقالوا له : إعلم ياملك الزمان حفظتك النيران أن هؤلاء من فقراء المسلمين وأظنهم ما أتوا إلى هنا إلا يهنوك بسلامتك ويطلبون إحسانك، وهم يذكرون الله تعالى ، ويذرون فى الأرض ، ويأكلون من رزق الله ، ويطوفون البلاد ويحبونهم كل العباد ... » (٨) .

---

(٨) السيرة جـ١ ، ص٩ .

هكذا كان ظهور الأيوبيين لأول مرة فى « سيرة الظاهر بيبرس » على هيئة الصوفية . ونجد هنا رمزا واضحا للبعد الدينى العاطفى فى حياة المجتمع المصرى آنذاك . فمن المعروف أن الصوفية قد باتوا يلقون التقدير العاطفى بعد أن اشتد ساعد الحركة الصوفية بسبب الحروب الصليبية وحركة الإحياء السنى التى لازمت حركة الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين . ومن المعلوم أيضا أن « صلاح الدين الأيوبى » قد اعتمد ، بدرجة كبيرة ، على المتصوفة فيما يمكن أن نسميه التعبئة المعنوية لجماهير المسلمين فى مواجهة العدوان الصليبى وكان يصحبه عدد منهم أثناء تحركات جيوشه ضد الفرنج . وربما يكون الخيال الشعبى قد اختار هذه الصورة المحببة إلى نفوس العامة لظهور الأيوبيين على مسرح الأحداث تقديرا لدور « صلاح الدين الأيوبى » فى خدمة قضية الإسلام والمسلمين واسترداد بيت المقدس .

ولنواصل قراءة هذا الجزء من « السيرة الظاهرية » . يقول الراوى : « أمر هلاون بطردهم فصاحوا : الله أكبر ، وأجابهم من الخارج سبعون ألفا من الأكراد .. وكان المقدم على تلك الأكراد رجل يقال له يوسف صلاح الدين فقام على حيله ، وما قصد إلا السجن الذى فيه أمير المؤمنين ، وضرب باب السجن بيده ، فانكسر الباب ، بإذن مسبب الأسباب .. » وانتهت المعركة بهروب هلاون وأثنين من رفاقه (٩) .

(٩) السيرة جـ١ ، ص١٠ .

هنا نجد خلطا شديدا فى الأدوار والأحداث التاريخية ، كما نجد صياغة الحدث الفنى تتخذ شكلا تعويضيا نفسيا ، فالسيرة تجعل الخليفة سجينا لا يلبث أن يجد من يكسر باب سجنه، على حين يخبرنا التاريخ أن الخليفة قد لقى مصرعه بشكل مهين . بيد أننا يمكن أن نجد لهذا كله تبريرا فنيا يوافق العقلية الشعبية (صاحبة المصلحة الحقيقية فى الرواية) ، كما أنه تمهيد لنقل الأحداث إلى المسرح الرئيسى للسيرة الظاهرية ، أعنى مصر وبلاد الشام .

وتذكر السيرة أن سبب قدوم « هؤلاء الاكراد الأيوبية » إلى بغداد يرجع إلى أن سيولا وثلوجا نزلت ببلادهم فقتلت مزارعها وأخربت الأرض . فذهبوا إلى كبيرهم « صلاح الدين الايوبى » الذى أمرهم بأن يسيروا إلى أمير المؤمنين لعله يمنحهم أرضا خصبة يقيمون بها . وفى الطريق يقابلهم أحد الزهاد ويطلب منهم ترك السيوف والدروع الحديد وأن يتقلدوا سيوفا خشبية وتروسا من شجر الجميز ... وبهذه الأسلحة يهزمون التتار (١٠) .

هنا مرة أخرى نجد تأكيدا على الرمز الدينى العاطفى من خلال رموز الصوفية كما فهمها أبناء تلك العصور . ومن المهم أن نلاحظ أن الراوى ، أو الرواة ، كان يخاطب الناس بما يرضيهم ويكسب تعاطفهم من جهة كما يمثل لهم مثلهم العليا وقيمهم ورموزهم فى شخوص تاريخية من جهة

---

(١٠) السيرة جـ١ ، ص١١ .

أخرى . وهكذا قدمت السيرة الظاهرية الناصر صلاح الدين الأيوبى فى صورة بطل يتجلى في شخصيته البعد الدينى بوضوح شديد ، كما يظهر البعد العسكرى في إنتصاره الساحق على التتار وإنقاذ خليفة المسلمين. وعلى الرغم من أن « صلاح الدين الأيوبى » اكتسب شهرته التاريخية الحقيقية بفضل جهاده ضد الصليبيين واسترداد بيت المقدس ، فإن السيرة الشعبية لم تعبأ بهذه الحقيقة التاريخية الثابتة فى سبيل الصياغة الفنية . وليس من الإنصاف أن نحاسب الفنان الشعبى بمقاييس المؤرخ الصارمة ، فإن هدفه الفنى ذو أبعاد ثقافية / اجتماعية تحفل بالرموز والدلالات أكثر مما تحتفى بالحقائق التاريخية المجردة .

ومن هذا المنطلق تقدم لنا السيرة الشخصية التاريخية التالية وهى « شجر الدر » والسيرة تجعلها ابنة الخليفة العباسى الذى تسميه « شعبان المقتدى بالله » . وتحكى السيرة أن هذا الخليفة لم يكن ينجب بنات، وسأل الله تعالى أن يرزقه ببنت ، فاستجاب الله ورزقه ببنت رائعة الجمال اختار لها اسم « فاطمة » فلما بلغ عمرها سبع سنوات أمر أن تصنع لها بدلة من الدر . وحين خرج من السجن بفضل « صلاح الدين » جاءته ابنته وهى ترتدى البدلة ، فقال إنها مثل شجر الدر « ..فكنيت بشجر الدر من تلك الساعة أو بعد ذلك .. » (١١) .

ومن المثير حقا أن الراوى يشير إلى الروايات التى تقول أن « شجر

(١١) السيرة جـ١ ، ص١٣

الدر » جـارية في الأصـل ، ولكنـه لا يلبث أن ينفى هذه الروايات في حسم بقوله : « .. ولكن الأصح أنهـا من ظهـره بلا محال ، وإنما ذكرنا ذلك لإختلاف الأقوال .. » .

ومن خلال حكاية فرعية تخبرنا السيرة أن الخليفة وهب أرض مصر لابنته شجر الدر. ثم تقع معركة جديدة يقوم الأيوبيون فيها بهزيمة جيش مغولي ضخم عدده مائة ألف مقاتل وتمضى السيـرة لتصـوغ صيـاغة تعويضيـة ترضى الوجدان الشـعبى الذى عـانى صدمة سقوط الخلافة العباسية أمام هجمات التتار . إذ يقول الراوى أن عدد كبيرا من أمراء التـتـار سـقطوا أسرى بأيدى المسلمين واستنجدوا بصلاح الدين الأيوبى الذى طلب من الخليفـة أن يبـقى على حيـاتهم مـقابل فـدية كـبيـرة . ويسـتجيب الخليـفـة فـيدخل أولئك الأمـراء فى طاعـتـه . وعندئذ يمنح الخليفة صلاح الدين أرض مصر والشام .

هنا تبـدأ الإشكاليـة الأولى فى السيرة بالإشارة من طرف خفى (لا يلبث أن يصيـر صريحـا واضحـا فـيمـا بعد) إلى مدى شرعيـة الحكم الأيوبى لمصر . لقد أعطى الخليفـة العبـاسى حكم مصر لصلاح الدين ناسيا أنه كان قد منحها قبل ذلك لابنته شجر الدر . هل يمكن أن يكون موقف الفنان الشـعبى تعبـيرا عن مـوقف عـامـة المصريين تجاه حكم الأيوبيين ؟ وهل يمكن أن تكون هذه الصـيـاغـة الفنية رد فـعل للطريقة التى استـولى بها صـلاح الدين الأيوبى على حكم مصر حين كان وزيرا

للخليفة العاضد آخر الفاطميين وعزله ومات وهو لايعلم أنه آخر الفاطميين ؟ وهل يمكن أن يكون هذا الموقف من الأيوبيين تعبيرا عن رفض المصريين لسياسة كانت تعتبر بلادهم مجرد مصدر للمال والرجال يستعين صلاح الدين فى حكمها بمجموعة من أهل الشام والعراق الذين كتب بعضهم مستهينا بالمصريين وبلادهم ؟ وهل يمكن أن يكون السبب فى ذلك راجعا إلى أن « صلاح الدين الأيوبى » غاب كثيرا عن مصر بسبب ضرورات الجهاد ضد الصليبيين ، وبذلك لم يعرفه المصريون عن قرب على الرغم من أنهم قد حفظوا له الجميل حين قاد حركة الجهاد الإسلامى لهزيمة الصليبيين واسترد منهم بيت المقدس ؟

هذه الأسئلة ، وما قد يتفرع عنها بالضرورة من أسئلة جديدة ، تطرح نفسها دون أن تجد لها إجابة شافية وافية حتى الآن .

على أية حال ، تتحدث السيرة عن دخول صلاح الدين إلى مصر فى موكب دينى وليس فى موكب عسكرى . وتذكر أنه صعد إلى قلعة الجبل (١٢) ، وجلس على الكرسى ، وحوله أولاد عمه . ثم رزق بولدين أحدهما يقال له العادل والآخر يقال له الكامل ، ثم يموت صلاح الدين عندما يعلم بنبأ وفاة ابنه العادل (١٣) . ولا عبرة هنا بالأسماء أو الأحداث فإن الراوى يمر بها مسرعا ، ويستخدمها لكى يصل إلى نقطة

---

(١٢) المقريزي ، السلوك جـ١ ، ص٦٣ ،حيث يذكر ان صلاح الدين الأيوبي شرع في بناء القلعة سنة ٥٧٢ هجرية .

(١٣) السيرة جـ١ ، ص٢٤ - ص٢٥ .

أخرى مهمة فى روايته ، وهى ظهور شخصية تاريخية جديدة تحتل مكانة هامة فى « سيرة الظاهر بيبرس » وهى شخصية الصالح نجم الدين أيوب .

ومرة أخرى نجد أنفسنا فى مواجهة عدة أسئلة تطرح نفسها عن موقف السيرة من الأيوبيين جميعا ، فهى تمر مسرعة بأبناء البيت الأيوبى بعد صلاح الدين . وتكاد السيرة أن تتجاهل السلطان الكامل الأيوبى ، إذ أن الراوى ، أو الرواة ، لم يذكر اسم «الكامل» سوى مرة واحدة فى سياق التمهيد لظهور « الصالح نجم الدين أيوب » . فهل يمكن أن يكون لهذا الموقف الوجدانى الشعبى وتجاهله للسلطان الكامل مبرراته فى الحقيقة التاريخية القائلة بأن الكامل هو الذى سلم مدينة بيت المقدس للأمبراطور فردريك الثانى - دون قتال - فى غمرة أحداث ما يعرف بالحملة الصليبية السادسة ؟

لقد عاد الامبراطور فردريك الثانى من فلسطين فى يونيو سنة ١٢٢٩م ، دون قتال ودون خسارة فى الرجال أو العتاد ، وإنما بمكاسب لم تستطع الحملات التى جردها الغرب الأوربى تحت راية الصليب منذ أيام صلاح الدين أن تحقق شيئا منها أو قريبا من مستواها . فقد حققت الحملة الصليبية السادسة - على الرغم من طابعها السلمى - نجاحا يعادل ما منيت به الحملة الخامسة من فشل على الرغم من طابعها العسكرى العدوانى .

أما العالم الاسلامي ، فقد رأى في هذه الهدنة التي عقدها السلطان الكامل كارثة حقيقية . ولم يستطع أحد من العرب والمسلمين أن يوافق على ما زعمه السلطان من أن الهدنة - التي كان ثمنها بيت المقدس - خدمة للمسلمين، وامتلأت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مدن العالم الإسلامى الفسيح بالخطباء الناقمين على السلطان المتخاذل الذى ضحى بالمصلحة الإسلامية العامة فى سبيل مكاسبه الإقليمية الضيقة . وعلى الرغم من أن السلطان بعث رسله وسفراءه فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لتبرير فعلته ، فإن الرأى العام الإسلامى لم يغفر له هذا الخطأ الفادح بتسليم رمز من أهم رموزه الدينية والحضارية للعدو. وقد عبر المؤرخ ابن واصل عن هذا الموقف بقوله : «... وللكامل هفوة جرت منه ، عفا الله عنه لأنه سلم بيت المقدس إلى الفرنج اختيارا . نعوذ بالله من سخط الله ومن موالاة أعداء الله ..» . أما « تقى الدين المقريزى » فيرسم لنا صورة أكثر حيوية لرد الفعل (الشعبى تجاه فعلة السلطان الكامل) فيحكى قصة الهدنة بين الكامل وفريدريك الثاني ، ومدتها عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما ، ثم يقول : « ...وبعث السلطان فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه إلى الفرنج ، فاشتد البكاء ، وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه فى غير أوقات الصلاة . فعز ذلك عليه وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة

والآلات وزجرهم . وقيل لهم : امضوا حيث شئتم . فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء ، واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشفاعات عليه فى سائر الأقطار .. » (١٤) .

هكذا يمكن تفسيرموقف الفنان الشعبى فى سيرة الظاهر بيبرس من السلطان الكامل باعتباره انعكاسا لموقف عامة الجماهير وتعبير عن الموقف الشعبى الحقيقى من هذا السلطان . لقد استخدمت السيرة أسم الكامل باعتباره والد « الصالح نجم الدين أيوب » الذى تضعه السيرة فى مكانة مناقضة لمكانة الكامل إذ أن السيرة تصف الصالح بما نصه : « .. كان ولده الملك الصالح قد زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة ، وقرأ القرآن وعرف الحلال من الحرام ، فعبد الملك العلام ، وصار من عباد الله الصالحين ، وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين ولا يجالس أهل الدولة ولا يحاضرهم فى حكومة ، فسموه الأكراد « الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب » ، ولما تولى السلطنة اشترط على نفسه ألا يأكل من السلطنة ولا يأخذ شيئا من أموال المملكة ولا أكل سوى من كسب يده .. » (١٥) .

هذه الصورة التى توافق خيال العامة وترضى نفوسهم وتلقى القبول الوجدانى لديهم ، تكتمل ملامحها بما يرد على لسان الصالح نجم الدين

---

(١٤) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص٢٢٩ - ص٢٣١ .

(١٥) السيرة ، جـ١ ، ص٢٩ .

أيوب نفسه ، إذ يقول : « ... أنا رجل أظفر الخوص وأعمل المقاطف ، ولا أعرف السلطنة ولا أعرف أحكامها » . كما أنه حين يختار لنفسه وزيرا يجعل توليته فى مسجد الحسين (١٦) .

وتخلق السيرة موقفا يتقابل فيه « الصالح نجم الدين أيوب » مع « شجر الدر » . وهو موقف فنى صاغه الفنان الشعبى ولا يتصل بالحقيقة التاريخية من قريب أو بعيد ولكنه قد يحمل بعض الدلالات ذات المغزى عن موقف المصريين من الأيوبيين عموما ، كما يفسر موقفهم من الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر من جهة أخرى . تقول الرواية : « .. فى يوم من الأيام بينما الملك الصالح جالس ، وإذا أربعة يقبلون الأرض بين يديه ، فقال الملك الصالح ما الخبر ؟ فقالوا ياأمير المؤمنين أننا رسل السيدة فاطمة شجر الدر بنت أمير المؤمنين المقتدر بالله تعالى. وقد أمرتنا أن نقول لك أن الأرض أرضها ومصرها ، وأن حجتها معها ، وهى تأمرك أن تنزل من على التخت ، وهى توليه لمن تريد من السادات أو العبيد .. » (١٧) .

هكذا تشير السيرة صراحة إلى عدم شرعية حكم الأيوبيين لمصر . فهل يمكن أن نربط بين هذا الموقف الفنى للفنان الشعبى من جهة ، وثورة القبائل العربية ضد المعز أيبك فى بداية عصر المماليك وقول زعيمهم «حصن الدين ثعلب » . « .. نحن أصحاب البلاد وأنا أحق بالملك من

---

(١٦) نفسه ، جـ١ ،ص ٣٠ - ص ٣٦

(١٧) السيرة جـ١ ، ص٣٧ .

المماليك ، وقد كفى أننا خدمنا بنى أيوب ، وهم الخوارج خرجوا على البلاد ... » (١٨) ؟ أم أننا يمكن أن نقول أن المبرر الوحيد لقيام سلطة الأيوبيين أن صلاح الدين وظف طاقاته ومواهبه فى خدمة أهداف أمته . ولكن الأيوبيين - بعده - دخلوا فى سلسلة من المنازعات المحلية الضيقة ضد بعضهم البعض ، بل إن بعضهم استعانوا بالصليبيين بحيث فقدوا المبرر الحقيقى لاستمرار سلطتهم .

ولكن الفنان الشعبى فى الوقت نفسه لا يريد لبطل فى مكانة «صلاح الدين الأيوبى» أن يبدو مغتصبا للحكم فى مصر ، فيجعل السبب فى هذه الاشكالية ناتجا عن أن الخليفة العباسى منح الحكم لابنته ثم نسى ومنحه مرة أخرى للناصر (صلاح الدين يوسف) . ومن ناحية أخرى ، تبدو السيرة متعاطفة تماما مع « شجر الدر » . فيضفى الخيال الشعبى عليها بعض الصفات المحببة فى نفوس العامة ويجعل لشخصيتها بعدا دينيا محببا . إذ تحكى السيرة أن « شجر الدر » كانت قد رغبت فى الإقامة بالحجاز وإنفاق أموالها على الفقراء وأصحاب العيال ، وظلت تطوف البلاد وتواسى المرضى والفقراء حتى وصلت إلى أرض مصر . وحين وجدت أن أحدا لم يرحب بها غضبت لأن مصر ملك لها ، فأرسلت الرسل الأربعة إلى « الصالح أيوب » (١٩) .

على أية حال ، تقول السيرة أن « شجره الدر » ذهبت للقاء الملك

---

(١٩) السيرة جـ١ ، ص٣٨ - ص٣٩ .

(١٨) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص٣٨٦

الصالح في القلعة . وأشار عليه وزيره أن يتزوجها حتى تثبت له المملكة. ورفضت شجر الدر في بادىء الأمر عرض الزواج الذي قدمه لها الوزير نيابة عن السلطان . ولكن كرامات « الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب » تجعلها توافق على الزواج . وبعد ذلك ظلت طوال أثنى عشر عاما تحج سنويا إلى الحجاز وهى بكر عذراء، ثم دخل بها السلطان بعد ذلك (٢٠) .

ويجدر بنا أن نتوقف أمام هذه الصورة المحببة شعبيا والتى ترسمها السيرة لكل من الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر . لقد جعل الخيال الشعبى من الملك الصالح ملكا عادلا يكره أن يأكل من ضرائب الدولة التى أسماها المعاصرون « المظالم » و « المغارم » و « المصادرات » و« الكلف » - تعبير عن رأيهم فيها . ولأن العقلية العامة تميل إلى المبالغة والتطرف ، فإن الفنان الشعبى صور الصالح أيوب فى صورة الزاهد صاحب الكرامات ، وفاعل الخوارق والمعجزات ، كما أنه لا يأكل سوى من عرق يديه . إذ أنه يظفر الخوص ولا يأكل سوى أكل سواد العامة من الدقة والقراقيش. أما شجر الدر فإن حظها كان كبيرا من كرم الخيال الشعبى . فقد جعلتها السيرة ابنة شرعية للخليفة العباسى ، وحاكمة شرعية لمصر - على الرغم من أنها لم تجلس على العرش - ولا يكتسب حكم الملك الصالح فى مصر شرعية سوى بالزواج منها . كما أنها

(٢٠) نفسه جـ١ ص٤١ ، ص٤٩ .

سيدة متدينة عطوف محسنة تجول فى البلاد لتحسن إلى العباد على نحو ما يحدثنا راوى السيرة . ومن المهم أن نشير هنا إلى أن السيرة جعلت كلا من الملك الصالح وشجر الدر بمثابة الأب والأم لبطل السيرة « الظاهر بيبرس » ، فإن الصالح يرعاه طوال مراحل حياته ويرقيه فى الخدمة ، على حين تتبناه شجره الدر .

وربما يكون من الأفضل أن نتعرف على الخطوط العامة لشخصية « الصالح نجم الدين أيوب » و « السلطانة شجر الدر » كما تصورهما المصادر التاريخية ، لكى نعرف كيف يعيد الوجدان الشعبى انتاج التاريخ وأبطاله وحوادثه من ناحية ، ونحاول أن نتلمس السبب فى ذلك من ناحية أخرى . يقول المقريزى عن « الصالح نجم الدين أيوب » : « ... كان ملكا شجاعا حازما مهيبا لشدة سطوته وفخامة ناموسه ، مع عزة النفس وعلو الهمة ، وكثرة الحياء والعفة وطهارة الذيل عن الخنا ، وصيانة اللسان من الفحش فى القول ، والإعراض عن الهزل والعبث بالكلية ، وشدة الوقار ولزوم الصمت ، حتى أنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه أخذتهم الرعدة عندما يشاهدونه خوفا منه ، ولا يبقى منهم أحدا مع أحد . وإذا جلس مع ندمائه كان صامتا لا يستفزه الطرب ولا يتحرك ،وجلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير . وإذا تكلم مع أحد من خواصه كان ما يقوله كلمات نزرة ، وهو فى غاية الوقار .. ومع هذه الشهامة والمهابة لا يرفع بصره إلى من يحادثه ، حياء منه وخفرا . ولم يسمع منه قط فى حق أحد من خدمه لفظة فحش ، وأكثر ما يقول إذا شتم أحدا « متخلف » لا يزيد على هذه الكلمة ، ولا عرف قط من

النكاح سوى زوجته وجواريه .. » (٢١) .

هذه هى ملامح شخصيته ، فكيف كانت أيام حكمه ؟ يقول المقريزى: « .. وكانت البلاد فى أيامه آمنة مطمئنة ، والطرق سابلة .. وكان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات ، من غير أن يخالطهم ، ولم يخالط غيرهم لمحبته فى العزلة ورغبته فى الإنفراد ، وملازمته الصمت ، ومداومته على الوقار والسكون .. » .

هذه هى ملامح الشخصية التاريخية للملك الصالح الذى مات وهو يقود المعركة ضد الفرنج من فراش المرض . فقد كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة « لويس التاسع » ملك فرنسا قد تمكنت من أخذ دمياط دون قتال فى شهر صفر سنة ٦٤٧ هجرية (يونيو - ١٢٤٩ م) . واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة التى حرص على تحصينها بمزيج من مشاعر المرارة والألم والغضب . فعاتب قادة الحامية المنسحبة بكلمات مريرة عنيفة .وأعدم عددا من الفرسان الذين هربوا من المعركة ، ولكنه لم يستسلم للهزيمة . ونقل معسكره إلى المنصورة التى كانت قد أنشئت قبل ثلاثين سنة فقط من هذا التاريخ . وشرع الجنود والأهالى فى ترميم أسوار المدينة وتحصينها تحسبا لقدوم الصليبيين .

وفى غمار الاستعداد للمعركة أحس السلطان بدنو أجله ، فنودى فى

---

(٢١) المقريزي ، السلوك جـ١ ص٣٣٩ - ٣٤٢

مصر « .. من كان له على السلطان ، أو عنده ، شيء فليحضر ليأخذ حقه .. » فطلع الناس وأخذوا مالهم . ومن ناحية أخرى بدأت القوات المصرية تتوافد على مدينة المنصورة : فها هى كتائب فرسان المماليك ، وفرسان العربان ، والمتطوعون الذين جاءوا فى أعداد كبيرة لمواجهة الصليبين .

وماجت المدينة الفتية بالحركة والنشاط حول القصر السلطانى الذى كان يرقد بداخله السلطان المريض ، وقد غلبت شجاعته مرضه ، وبات مؤرقا بالرغبة فى الإنتقام .. ولكن الموت سبق السلطان فمات عن أربع وأربعين سنة فى معسكره بمدينة المنصورة شهيدا فى ساحة القتال .

هذه هى صورة « الصالح نجم الدين أيوب » فى كتب التاريخ ، وهذا هو دوره فى الدفاع عن البلاد ضد العدوان الصليبى . لقد مات فى ريعان الشباب بعد حياة مأساوية صاحبها المرض الطويل ، وكان موته فى ساحة الجهاد . فهل يمكن أن يكون هذا هو السبب فى أن الخيال الشعبى حين أعاد إنتاج صورة الملك الصالح فى السيرة صبها فى ذلك القالب الذى يحظى بقبول شعبى واسع ، بحيث يعفيه من مسئولية الممارسات الخاطئة للإدارة الحكومية ، وبحيث يجعله مجذوبا من أهل الكرامات .. ينكشف عنه الحجاب ، يأتى بالخوارق والمعجزات ، وتصدر عنه الكرامات ؟ وهل يكون من الشطط فى التقدير أن نقول أن الخيال الشعبى وضعه فى هذا المكان بسبب سيرته وجهاده معا . أن السيرة

تقدمه على أنه « الملك الصالح والزناد القادح ، والبحر المليان السايح ، الصـالح أيوب ولى الله المجـذوب ابـن الفـاضل بن الكامـل بن سـعيـد السعدا ، بن شهيد الشهدا ، ينسب إلى سيدنا نوح عليه السلام .. » (٢٢) .

من ناحية أخرى ، اختارت « السيرة الظاهرية » الملك الصالح ليكون صاحب الفضل فى قدوم بيبرس إلى مصر ، كما كان هو المسئول عن رعايته (٢٣) . كذلك فإن الفنان الشعبى جعل النبوءات تتكرر على لسان الصالح أيوب فى عدة مواقف لتنبىء بقدوم البطل . فهل يمكن أن يكون الوجدان الشعبى قد اختار « الملك الصالح » لهذا الدور بسبب سيرته الحسنة أثناء الحكم . وموقفه البطولى من الحملة الصليبية السابعة ؟ أم أننا يمكن أن نرجع السبب فى بساطة إلى الحقيقة التاريخية القائلة بأن الصالح أيوب هو الذى كون طائفة المماليك البحرية الذين كان بيبرس البندقداري واحدا من أبرز زعمائهم (٢٤) ؟

أما « شجر الدر » ، فقد قامت بدورها الذى يتسم بالتفانى والإخلاص وقوة العزيمة . فعندما توفى السلطان أحضرت كلا من الأمير « فخر الدين بن شيخ الشيوخ » ، والطواشي «جمال الدين محسن» وكانا أقرب الناس إلى السلطان والمسئولين عن الجيش والمماليك والحاشية . وأعلمتهما بوفاة السطان . وطلبت منهما كتمان الخبر فى الظروف الحرجة

---

(٢٢) السيرة ، جـ١ ص٢٧٦ .

(٢٣) السيرة ، جـ١ ، ص٨٠ ، جـ٢ ، ص١٠ ، ص٢٨ ، ص٧٦ ، ص٩٥ .

(٢٤) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

التى كانت تمر بها المعركة ضد الصليبيين . فأتفقا مع « شجر الدر » على القيام بتدبير المملكة إلى أن يحضر السلطان المعظم توران شاه بن الصالح أيوب لتولى العرش . وظلت « شجر الدر » تقوم بدور السلطان الذى لم يعرف الناس بوفاته إلا بعد حين .

وجاء « المعظم توران شاه » بعد أن كانت القوات المصرية قد أجهزت على القوات الصليبية فى المنصورة بمساعدة عامة المصريين يوم ٤ ذى القعدة ٦٤٧ هجرية (٨ فبراير ١٢٥٠ م) وتم إعلان وفاة السلطان السابق رسميا وسلمت « شجر الدر » مقاليد الحكم لابن زوجها السلطان الشباب الذى تولى قيادة الجيش بنفسه . ثم جرت المعركة الرئيسية ضد الجيش الصليبى قبالة فارسكور وانتهت بالجيش الصليبى بين أسير وقتيل ، وكان لويس التاسع نفسه بين الأسرى .

بيد أن « تورانشاه » جاء إخفاقا أيوبيا جديدا ، وفشل فى الاستجابة للتحدى الذى تفرضه الظروف التاريخية . وبدلا من أن يحاول توحيد الجهود للقضاء على بقايا الوجود الصليبى فى فلسطين وبلاد الشام بدأ يحيك الدسائس والمؤمرات ضد من خاضوا المعركة بعد وفاة أبيه وصانوا له عرشه فى غيابه .

وقد وصفه أحد المؤرخين المعاصرين بأنه « .. كان سيء التدبير والسلوك ، ذا هوج وخفة .. » وأخيرا لقى مصرعه بأيدى أربعة من كبار المماليك ، وهو فى معسكره بفارسكور صباح الاثنين ٢٧ محرم

٦٤٨ هجرية (٢ مايو ١٢٥٠م) .

تبددت دماء « توران شاه » مع مياه نهر النيل ، ومعها تبددت آخر مظاهر السلطة الأيوبية الفعلية في مصر ، وإن بقى لها ظلٌ يتوارى خجلا إلى جانب الأضواء التى فرضت نفسها على مسرح التاريخ فى ذلك الزمان .وأختار المماليك - أصحاب السلطة الفعلية - الأميرة « شجر الدر » لتكون أول سلاطين المماليك . وعلى الرغم من دورها الرائع فى توجيه شئون الحكم والحرب إبان أحداث الحملة الصليبية السابعة وأثناء مرض زوجها « السلطان الصالح أيوب » وبعد وفاته : فإن الخليفة العباسى رفض الأعتراف بحكمها . وقبضت « شجر الدر » على زمام الحكم بيد من حديد ، وتخلصت من بقايا الحملة الصليبية وتسلم المصريون دمياط بعد انسحاب شراذم الفرنج منها فى مايو ١٢٥٠ م . وأخذت « شجر الدر » تتقرب إلى الخاصة والعامة من رعاياها . ولكن الرأى العام رفض الإعتراف بحكم إمرأة وهاجت القاهرة بسكانها وماجت احتجاجا على حكم السلطانة . وبعد ثمانين يوما تنازلت « شجر الدر » عن العرش لواحد من أمراء المماليك ، كانت قد اختارته زوجا لها ، هو عز الدين أيبك التركمانى الذى تولى عرش السلطنة باسم « الملك المعز » .

كانت فترة حكم « شجر الدر » مرحلة إنتقالية ، كما كانت خروجا على مسار التراث السياسى الإسلامى . لقد اختارها المماليك ، وهم

حديثو عهد بالإسلام ، بفعل الظروف الحرجة التى فرضت شكلا استثنائيا من أشكال السلطة ، فقد رفضها المصريون لأن سلطتها كانت خروجا على الشرع والتقاليد السياسية لبلادهم .

واللافت للنظر أن « سيرة الظاهر بيبرس » لم تجعل شجر الدر تجلس على عرش مصر وإنما جعلتها تتزوج « الصالح أيوب » لتثبيث ملكه . ومن ناحية أخرى ، حرص الفنان الشعبى على تصويرها فى صورة محببةإلى العقلية العامة ، فقد نفى عنها صفة العبودية ، وجعلها ابنة للخليفة العباسى . بل إن السيرة جعلت « شجر الدر » تعيش عدة أجيال منذ زمن صلاح الدين الأيوبى حتى تتزوج « الصالح نجم الداين أيوب » فهل يمكن أن يكون الوجدان الشعبى قد أعاد أنتاج شخصية شجر الدر فى هذه الصورة التعويضية تقديرا لدورها فى الدفاع عن البلاد ؟

آخر الشخصيات التاريخية التى تناولتها « السيرة الظاهرية » شخصية « عز الدين أيبك » . ويبدو واضحا أن السيرة اتخذت منه موقفا عدائيا تماما ، فقد جعلت سبب مجيئه إلى مصر مشوبا بقدر من الإنتهازية والعدوانية . إذ تقول السيرة « ... كان ملك من الملوك بأرض الموصل [هو أيبك] ...

وكانت تأتيه الأخبار بما يجرى فى كل الأمصار فبالأمر المقدر بلغه أن مصر عليها ملك من الأكراد الأيوبية يقال له « الصالح أيوب » وذلك

الرجل فقير الحال لا يعرف السلطنة . ولا له عليها أحوال ، فأمر بتجهيز العساكر . وجاء بهم من كل قطر ، ودفع لهم الأموال حتى صار فى ركبة عظيمة وقال : لا بد أن أملك أرض مصر .. » . وسار أيبك بجيشه حتى وصل حلب فحاصرها ، ثم داهمه مرض شديد. وعرف السلطان بأمر أيبك وحملته لأنه « ولى الله المجذوب » الذى ينكشف عنه الحجاب ، وأمر نائب حلب أن يفتح أبواب المدينة أمام أيبك وجيشه . وبعد عدد من المتاعب التى يتعرض لها جيش أيبك بفضل كرامات الصالح أيوب يصل إلى مصر ويتخذه السلطان وزيرا له (٢٥) . والسيرة تجعل أيبك أميرا خائنا ظالما ، فتارة يراسل « هلاون » لكى يستعديه ضد « بيبرس » على حين يحاول هو وأعوانه نهب معسكر بيبرس ولكن المصريين يتصدون لأيبك ورفاقه (٢٦) ، وتارة أخرى تجعله السيرة متآمراً مع الفرنج ضد بيبرس (٢٧) ، وتارة ثالثةتجعله متآمرا بالأشتراك مع القاضى الذى تجعله السيرة نصرانيا روميا يتخفى فى زى قاضى مسلم لهدم البلاد من الداخل عن طريق التجسس والتخريب (٢٨) .

ومن المشاهد المثيرة ، ذلك المشهد الذى ترسمه « السيرة الظاهرية »

---

(٢٥) السيرة ، جـ١ ص ٤٩ - ص٦٢ .

(٢٦) يقول نص الرواية ان الخطاب الذي أرسله ايبك الي هلاون كان نصه : « خطاب من أيبك وقلاون الي ابادي هلاون . اعلم أننا خاص الأعداء للولد بيبرس ، وانت ايضا عدو له . فاذا طلع النهار فاركب أنت في كامل رجالك .. » وعندما يحاول أيبك نهب معسكر بيبرس الذي رحل الي مكان هلاون ، يتصدي له « عثمان بن الحبلة » وجماعته ، و « عقيرب » وجماعته ، و« حرحش » وجماعته (السيرة ، جـ٢ - ص٦ - ص٩ ، ص٧ - ص١١) .

(٢٧) السيرة ، جـ٢ ، ص٤٩ ، ص٥٠ .

(٢٨) السيرة جـ٢ ص٣٦ - ص٣٧ - ص٤١ ، ص٤٤ - ص٤٥

لأيبك وجماعته بعد أن نجح « بيبرس » فى فتح أنطاكية وأخذها من الصليبيين على الرغم من مؤامرات أيبك ودسائسه . فقد عاد أيبك وجماعته مخذولين وتعرضوا لسخرية أولاد البلد أثناء سيرهم .

يقول النص : « .. فلما رأوهم أولاد البلد قال أحدهم : أنظر يا أخى أيبك وجماعته دول كانوا مسافرين فى برمة . قال الآخر : كانوا فى زفته. واحد قال والله أنهم متعوسين ان كانوا مسافرين ولا يقعدوا . هذا وهم سائرين والناس تمشق فى أبدانهم ، ومنهم من يضحك عليهم ، ومنهم من يضرب لهم تعبير بحنكه منهم من يقول : الله لا كان جالى الغلا ولا كياله . . » .

ويكمل الراوى المشهد فيحكى أن بيبرس أمر بالقبض على أيبك وجماعته ، وأن يسيروا فى موكب مكشوفى الرأس حفاة الأقدام ، تتخاطفهم تعليقات جارحة من الناس ،فيقول أحدهم : هؤلاء الأثنين يخطفون العمائم فى سكة بولاق ، ويقول الثانى : هؤلاء قتلوا امرأة فى الجيزة ، ويقول ثالث : أنا راحت لى عمة » .

هذا الموقف العدائى الحاد والظاهر فى السيرة تجاه أيبك لا نستطيع أن نحدد له سببا على وجه اليقين . بيد أننا نجد له مبررا فى شخصية « المعز أيبك » المخادعة وأساليبه غير الشريفة . فقد كان نمطا من البشر يبدو لين العريكة سهل المنال ، لا يتخذ لنفسه موقفا ، ولا يبدى رأيا فى موضوع ؛ يؤثر أن يطيع من له الأمر فى كل المواقف ، فإذا أمسك

بلجام السلطة انقلب وحشا مستبدا وتجلت فيه صفات الضعف المتحكم المستبد . فالتاريخ يخبرنا أن أمراء المماليك الأقوياء أختاروا أيبك سلطانا لأنهم أعتقدوا أنه ضعيف « .. متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته .. » . لكنه عندما أيقن أن الأمور قد دانت له خلع السلطان الأيوبى الطفل « الأشرف موسى » الذى كان فى السادسة من عمره وسجنه، ثم دبر مؤامرة قتل فيها « فارس الدين أقطاى » زعيم المماليك البحرية صديق بيبرس البندقدارى . ولم يلبث هو نفسه أن لقى مصرعه على يد زوجته « شجر الدر » حين عرفت أنه يسعى للزواج من إحدى بنات البيت الأيوبى ليتخلص منها نهائيا ، وليدعم حكمه بصبغة شرعية بزواجه من الأميرة الأيوبية .

قال عنه المقريزى « .. قتل خلقا كثيرا ، وشنق عالما من الناس بغير ذنب ليوقع فى القلوب مهابته ، وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده .. » (٢٩) فهل يمكن أن يكون الموقف العدائى الذى اتخذته سيرة الظاهر بيبرس من أيبك انعكاسا لشخصيته الغادرة أم هو رد فعل لكثرة القتل وسفك الدماء الذى ميز فترة حكمه التى دامت حوالى سبع سنين حافلة بالمتاعب فى الداخل والخارج ؟ أم أننا يمكن أن نفسر هذا الموقف فى ضوء الضرائب الكثيرة التى فرضها أيبك على المصريين ووصفها المؤرخون بأنها « مظالم ومصادرات » لا سيما أن من خلفوا أيبك على

---

(٢٩) المقريزي ، السلوك جـ١ ، ص٤٠٤ .

العرش تمسكوا بهذه الضرائب فى أغلب الأحوال .

* * *

هذه بعض الملامح العامة التى رسمتها « سيرة الظاهر بيبرس » لأهم الشخصيات التاريخية ، وربما يكون من المهم أن نعرض بعض الملاحظات الختامية فى هذا الموضوع :

أولا: إن الوجدان الشعبى وهو يعيد إنتاج تاريخه لا يهتم كثيرا بالحوادث والأماكن والشخصيات التاريخية والتتابع الزمنى فى سياقه التاريخى الفعلى ، وإنما يوظف ذلك كله فى خدمة هدفه الفنى بمضامينه الاجتماعية / الثقافية بحيث يبرز دور عامة الناس فى صنع تاريخهم ، وهو الدور الذى أهمله المؤرخون التقليديون لحساب الحكام .

ثانيا : أن البناء الفنى للبطل فى المفهوم الشعبى يكتسب أهمية خاصة حين يكون البعد الدينى العاطفى من أبرز أبعاد شخصيات السيرة الشعبية ، ومن ثم كان اهتمام الفنان الشعبى بتصوير « صلاح الدين الأيوبى » و « الصالح أيوب » و « شجر الدر » فى قالب دينى حافل برموز الصوفية والزهد ، وملىء بأخبار المعجزات والخوارق والكرامات التى تخلب ألباب الجماهير أصحاب المصلحة الحقيقية فى السيرة التى تهتم بإبراز دور عامة الناس .

ثالثا : أن الفنان الشعبى يعبر ، فى قسوة شديدة ، عن الكراهية الشعبية لمن يقفون ضد مصلحة الناس وأمانيهم العامة ، وضد من يتسبب فى إيذائهم . كما أن الفنان الشعبى يدين تماما من يخون المثل العليا والقيم التى تمثل النظام الاخلاقى لمجتمع الذى تمثله السيرة . ولذلك كان تجاهل السيرة للكامل الأيوبى ، وبقية أبناء البيت الأيوبى فيما بين صلاح الدين الأيوبى والصالح أيوب . كما كانت السيرة عدائية تماما إزاء المعز أيبك .

رابعا : أن « سيرة الظاهر بيبرس » ، فى حقيقة أمرها سيرة الشعب المصرى فى فترة مهمة من تاريخ المنطقة العربية ، ولذا فإن الصياغة الفنية لأحداث التاريخ وتشكيل شخصيات وأدوارهم قد وظفت لخدمة هذا الهدف الثقافى / الاجتماعى بحيث احتفت السيرة بالشخصيات التاريخية التى لعبت دورا فى مصلحة الناس ، واتخذت موقفا معاكسا ضد من عملوا لمصلحتهم الشخصية أو تسببوا فى الإضرار بالمصالح العامة

الرؤية الشعبية للحروب الصليبية
فى ألف ليلة وليلة

« الحروب الصليبية » عبارة ذات مدلول غامض بالنسبة للكثيرين ، وليست هناك ظاهرة تاريخية كان نصيبها من الخيال أكثر من نصيب الحروب الصليبية . وبينما أنتج الخيال الشعبى فى الغرب الأوربى صورة أخاذة للحروب الصليبية وأبطالها ، أنتج الخيال الشعبى فى الوطن العربى صورة معاكسة تدين الصليبيين وتحاكمهم ، فالصورة التى يتمثلها الغرب الأوربى صورة فرسان بواسل ألهمتهم الحماسة الدينية والشوق لتحرير قبر المسيح من أيدى المسلمين ؛ ففارقوا الأهل والوطن تحت راية الصليب يشنون حربا مقدسة ضد العرب ذوى البشرة الداكنة والعزائم الخائرة ، والذين يفرون أمام الصليبيين فى جبن وتخاذل ، وهذه الصورة ليست صحيحة : جملة وتفصيلا" [1]

وعلى الرغم من أن المنطقة العربية كانت المسرح الأساسى الذى جرت عليه أحداث المواجهة الطويلة المضنية : فإن الكثيرين من عامة المثقفين فى الوطن العربى لا يكادون يعرفون شيئا عن هذا الحدث التاريخى الهام والفكرة العامة عن « الحروب الصليبية » فى الوطن العربى فكرة عاطفية تدغدغ العواطف القومية وتداعب مشاعر الزهو الكاذبة . وربما

(١) عن هذا الموضوع انظر : قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية - نصوص ووثائق (العربية للدراسات والنشر - القاهرة ، ١٩٨٥م)ص : ٥ - ص :٨ .

يكون من أسباب هذه الصورة الضبابية للحروب الصليبية فى العالم العربى أن البحث التاريخى العربى عجز حتى الآن عن تكوين صورة صحيحة بشكل عام عن الحركة الصليبية التى كان هدفها الأساسى القضاء على الإسلام، وتحويل المنطقة العربية إلى مجال حيوى للتوسع الأوربى . ولكن الحروب الصليبية مع هذا ارتسمت فى الخيال الشعبى صورة توافق التفسير الشعبى لهذه الظاهرة التاريخية . وقد حفظ لنا الأدب الشعبى ملامح هذه الصورة فى طيات سيرة الظاهر بيبرس ، وبين أثناء حكايات « ألف ليلة وليلة » .

فقد كان العالم العربى مسرح الحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان . وظل هذا المسرح مشغولا بالفصل الختامى لقصة الحروب الصليبية طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ إذ كان على المنطقة العربية أن تتعرض للضربات اليائسة التى وجهتها شراذم الصليبيين فى قبرص ورودس للشواطىء العربية على البحر المتوسط (٢). وبطبيعة الحال كان تأثير الحروب الصليبية على المنطقة العربية أعمق كثيرا من تأثيرها على أوربا ؛ إذ كانت هذه المنطقة هدفا لتلك لسلسلة من الحملات العدوانية التى شنها الغرب الأوربى تحت راية الصليب . وعلى

(٢) كان اقتحام عكا علي ايدي القوات المصرية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١م نهاية الوجود الصليبي علي الأرض العربية . وبعدها تجمعت شراذم الصليبين في جزيرة قبرص ورودس انظر - STEVEN RUNCIMAN, A History of the Crusades (Harper Torchbooks, N.Y.) Vol. III, pp.389 -FF

الأرض العربية قام الوجود الصليبى سواء فى مملكة بيت المقدس اللاتينية أو الإمارات الصليبية الأخرى . كما تعرضت مصر وشبه الجزيرة العربية وتونس وبلدان المغرب الإسلامى لهجمات الصليبيين . وطوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين خاض العرب صراعا طويلا مرهقا من أجل القضاء على الكيان الصليبى . ثم كان عليهم أن يخوضوا صراعا آخر ضد شراذم الصليبيين فى جزائر البحر المتوسط ، وضد محاولات البابوية لفرض حصار اقتصادى وعسكرى على الموانىء العربية فى حوض المتوسط (٣) .

هذا الصراع الطويل المضنى ترك آثاره السلبية على شتى جوانب الحياة فى المنطقة العربية ؛ بحيث انتهت الحروب الصليبية وقد تجلت آثارها الوبيلة التى قادت العالم العربى صوب الأفول والغروب ليسقط تحت السيطرة العثمانية بعد قرنين من الزمان تقريباً .

لقد كانت الحروب الصليبية حروبا عسكرية ، ومواجهة حضارية طويلة بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الكاثوليكى ، وقد بدأت هذه المواجهة فى وقت كانت الحضارة العربية الإسلامية فيه قد وصلت إلى أقصى مراحل نضجها وتطورها ؛ ثم بدأت تخبو وتختفى . كذلك كان العالم العربى يعانى من فوضى التشتت والتشرذم السياسى الذى كان

---

(٣) انظر : عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة الدكتور فيليب صابر يوسف ، دار الثقافة ١٩٧٢م ، ص : ٧٩ - ١١٦ .

سر نجاح الحملة الصليبية الأولى (٤) وفى خضم الصراع ضد الصليبيين تجلت عوامل الضعف الكامنة فى العالم العربى والإسلامى ، وتجلت فى الوقت نفسه عوامل القوة التى ساعدته على الصمود أمام الغزوة الصليبية والإنتصار عليها .

وإذا لم تكن الحروب الصليبية هى السبب فى توقف الحضارة العربية الإسلامية وجمودها : فإن هذه الحروب كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفع الإبداعية فى هذه الحضارة وتعطيلها . فقد كان على العالم العربى أن يوجه جهده كله ، وأن يحشد طاقاته وإمكاناته جميعاً ، فى مجال العمل العسكرى أو العمل المعنوى الممهد للعمل العسكرى والمتابع له . وهكذا غلبت الصفة العسكرية على هذا الطور من أطوار الحضارة العربية الإسلامية . وعلى الرغم من هذا كله ،فإن العالم العربى لم يكن قد دخل بعد فى منحنى التدهور الحاد ، فقد كان المستقبل لا يزال يحتفظ للعرب ببعض من أعظم إنجازاتهم الثقافية والعسكرية .

فى هذه الدراسة لا يهمنا من تأثيرات الحروب الصليبية على العالم العربى سوى تأثيرها فى ثقافة المجتمع بالمعنى الواسع للثقافة : آدابه وفنونه فكره وفلسفته ، مثله وقيمه التى دارت حولها أشكال التعبير الفكرى وألوان الإبداع الفنى والأدبى التى تضمنتها الفنون والآداب

---

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ، ص : ١٨٩ وما بعدها ، الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو المصرية ، سنة ١٩٧٢م.

الشعبية ، ومنها حكايات « ألف ليلة وليلة » بطبيعة الحال . ومن المسلم به أن النتائج والآثار التى تنتج عن الحروب فى مجتمع ما ، لا تظهر بين عشية وضحاها ، كما أنها لاتختفى بمجرد انتهاء الحرب ؛ وإنما تخذ لنفسها شكل تيار اجتماعى ثقافي مستمر ومتصاعد يفرض نفسه في فنون المجتمع وآدابه التى درج الباحثون على تسميتها بالفنون الشعبية. وبعض هذه الفنون ينتسب إلى فنون القول . والفنون الشعبية القولية ، أو الأدب الشعبى ، غالبا ما يتخذ لنفسه قالب المأثورات الشفهية مثل السير والحكايات ، والنوادر والأمثال ، والقصص التاريخية الشعبية ، فضلا عن الزجل والبلاليق (٥) .

وحكايات ألف ليلة وليلة تحمل أصداء هذه التأثيرات التى تركتها الحروب الصليبية على المجتمع العربى . وعلى الرغم من محاولات بعض الدارسين تجريد حكايات ألف ليلة وليلة من روحها العربية ، وتلمس أصولها الفارسية أو الهندية ؛ فالثابت أن النصوص التى وصلتنا من هذه الحكايات مكتوبة باللغة العربية ؛ بعضها بلهجة عراقية وأغلبها باللهجة المصرية . وهو ما يشير إلى أن هذه الحكايات كانت متداولة فى العالم العربى آنذاك حيث كانت تلعب دورا اجتماعيا ثقافيا قريبا من دور المسلسلات الإذاعية والتليفزيونية الحالية . ومن ناحية أخرى فإن فارس

---

(٥) قاسم عبده قاسم ، « السيرة الشعبية مصدرا لدراسة التاريخ الاجتماعي – قراءة في سيرة الظاهر بيبرس » مجلة فكر العدد التاسع ص : ٨٢ – ٩٠

وأجزاء كبيرة من الهند كانت ولا تزال ضمن دار الإسلام ، وكانت الثقافة العربية هى ثقافة المسلمين فى تلك المناطق ، وتحفل المصادر التاريخية بأسماء أعلام كبار أنجبتهم هذه المناطق ليساهموا فى بناء صرح الثقافة العربية الإسلامية . كذلك فمن المعروف أن التيارات الثقافية تنتقل من مجتمع إلى آخر من مناطق التماس الحضارى لتصبح عناصر أساسية فى البنية الثقافية للمجتمع الذى انتقلت إليه بعد أن تغير من طبيعتها كى تلائم هذا المجتمع . والتيارات الثقافية فى هذا تشبه موجات البحر التى تضرب شاطىء البحر من جهة ما ، ثم تعود لتضرب الشاطىء فى جهة أخرى ، فلا يمكننا أن ننسبها إلى شاطىء بعينه .

كما أن طبيعة وسائل النشر الثقافى آنذاك تجعل محاولات تتبع الأصل الذى قامت عليه حكايات ألف ليلة وليلة غير ذات موضوع ، ذلك أن هذه الحكايات لم تكن تطبع فى آلاف النسخ لتوزع على القراء أو تذاع من خلال أجهزة الإذاعة السمعية والبصرية ؛ وإنما كان القصاصون يلقونها على مسامع الناس فى محافلهم ومجالس سمرهم على نحو ما يحدث الآن فى بعض مناطق الريف المصرى ، حيث يتجمع الناس حول الراوى وربابته يستمعون إلى السيرة الهلالية أو غيرها (٦)

(٦) تحدث إدوارد وليم عن هذا الموضوع فذكر أن القصاص كانوا يغشون مقاهي القاهرة وغيرها من المدن ويسامرون الناس ببراعة تجذب القلوب وذكر ايضا أن الشعراء من رواة «سيرة أبو زيد الهلالي» أو «أبو زيدية» كانوا حوالي خمسين في القاهرة ، كما ذكر أنه كان بالقاهرة حوالي ثلاثين «محدثا» من «الظاهرية» الذين يروون سيرة الظاهر بيبرس . انظر إدوارد وليم لين المصريون المحدثون - شمائلهم وعاداتهم نقله الي العربية عدلي طاهرنور ، الطبعة الثانية دار النشر للجامعات المصرية - ١٩٧٥م ، ص٣٣٧ - ٣٤٢ . كما تحدث عن «العناترة» الذين يروون سيرة عنترة وعددهم قليل ، ص ٢٥١ - ٣٥٨ .

ويعنى هذا أن النص الشفوى لحكايات ألف ليلة وليلة كان عرضة لعمليات مستمرة من الحذف والإضافة حتى يستحوذ القاص على اهتمامات السامعين ورضاهم . وبطبيعة الحال لايمكن لجماهير العامة من بسطاء الناس أن يستمعوا ويستمتعوا بشيء لا يمثلهم ولا يحمل بين طياته ما يعبر عن أمانيهم وأحلامهم وتطلعاتهم . ولعل هذا يفسر سبب الخلاف الواضح بين النسخ التى بقيت من ألف ليلة وليلة .

وحكايات ألف ليلة وليلة تفوح بأريج التاريخ العربى الإسلامى فى فترة هامة من هذا التاريخ الطويل ،فأسماء الأماكن والمدن العربية وأسماء الحكام العرب وألقابهم ، وأسواق القاهرة والإسكندرية وغيرها وبعض العادات والممارسات والقيم الأخلاقيات العربية التي وردت فى أثناء هذه الحكايات - والتى تؤكدها المصادر التاريخية التقليدية - كل هذه قرائن وبراهين تقف إلي جانب البرهان اللغوى عن أن ألف ليلة وليلة حكايات عربية كانت تلبى حاجة ثقافية / اجتماعية لجماهير الناس فى العالم العربى آنذاك . كما كانت تعبيرا عن جوانب هامة من حياة الفرد العربى فى تلك الفترة .

والحكايات التى تدور حول الحروب الصليبية ثلاث حكايات تزيد لياليها عن مائتى ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة وهى :

١- حكاية الملك نعمان وولديه شركان وضوء الزمان .

٢- حكاية على نور الدين ومريم الزنارية .

٣- حكاية الصعيدى وزوجته الفرنجية (٧) .

فقد سريت الحروب الصليبية - التى استمرت حوادثها على أرض الشرق العربى حوالى قرنين من الزمان - بعض أحداثها إلى حكايات ألف ليلة وليلة . وإذا كانت الحكايات الثلاث تدور حول حدث تاريخى حقيقى هو الحروب الصليبية ، فإن ذلك لا ينبغى أن يجعلنا نعتقد أننا سوف نقرأ فى هذه الحكايات تاريخاً بالمعنى المتداول بيننا ، أو أننا سنجد فيها صياغة للأحداث التاريخية بالشكل المتعارف عليه . ولكننا سوف نقرأ ما يمكن أن نسميه تجاوزا التاريخ الوجدانى لهذه الفترة . وهو نمط ينتج عن التفاعل بين الفن والتاريخ . فالفن الذى يتسرب إلى الوجدان يعبر أيضا عن الانفعالات والمشاعر التى يعج بها هذا الوجدان . والتاريخ الذى ينقل إلى الإنسان تراث الأجيال ومعارف السابقين ، هو الذى يشكل الإنسان على الرغم من أنه من ناحية أخرى من صنع الإنسان . والتفاعل بين الفن والتاريخ ، بين المشاعر والحقائق ، يخلق لنا ما يمكن تسميته الرؤية النفسية الشعبية للتاريخ.

وقد تطرقت هذه الحكايات الثلاث إلى موضوع الحروب الصليبية تارة بالتصريح وتارة بالتلميح ، ولكنها فى جميع الأحوال لا يمكن أن تكون

(٧) اعتمدت هذه الدراسة بشكل أساسي علي «ألف ليلة وليلة» (٤ أجزاء - طبعة محمد صبيح - القاهرة - بدون تاريخ) وطبعة الكاثوليكية - بيروت فضلا عن بعض المراجع الحديثة مثل كتاب رحلة في ألف ليلة وليلة للملاح (المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت) وكتاب ألف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوي (دار المعارف - القاهرة) والجدير بالذكر ان الكتاب الاخير لم يستطع ان يربط بين الحروب الصليبية وحكايات ألف ليلة وليلة ظنا من المؤلفة أن الحكايات تتناول «الروم» .

تاريخا يحمل الحقائق التاريخية المجردة على الرغم من أنها تحمل لنا الانفعالات الوجدانية الشعبية إزاء ذلك الحدث التاريخى . ومن المهم أن نشير إلى أن الحدث التاريخى حين يعود إلينا عبر الزمان بفضل الإبداع الفنى ، لا يعود بصورته التاريخية الدقيقة ولكن فى الإطار العام للقيم والمثل والأخلاقيات التى يمثلها الفنان تعبيراً عن المجتمع الذى أنجبه . فإذا كان الفنان يخاطب وجدان البسطاء من الناس ، كما هو الحال فى حكايات ألف ليلة وليلة والفن الشعبى عموما ، فإن عليه أيضا أن يضيف من خياله تفصيلات ووقائع وشخصيات ليلبى حاجة ثقافية اجتماعية ونفسية للعامة أصحاب المصلحة فى الحكاية ، بحيث يضمن الاستجابة العاطفية من جانبهم تجاه حكايته .

ذلك أن الناس فى المنطقة العربية قد عجزوا عن تفسير ما حدث أثناء الحروب الصليبية ولا سيما تلك الصدمة التى أصابتهم بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى فى الاستيلاء على بيت المقدس (٨) وأجزاء كبيرة من بلاد الشام . فقد كان الصليبيون أقل عددا ، وأضعف عدة كما كانوا أدنى فى مستواهم الحضارى من المسلمين ؛ ومع ذلك انتصروا بفضل التشرذم السياسى وأنانية حكام المنطقة العربية . وتطلب الأمر قرنين من الزمان حافلين بالصراع والقتال والجهد الشاق للقضاء على الكيان

---

(٨) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨م حوادث ٤٩٢ هجرية ص ١٣٦ - ١٣٧ ابن الأثير الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٩٢ هجرية ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ط١ ص٢٤٤ - ٢٤٦

الصليبى الدخيل . وكانت تلك صدمة مؤلمة عجز الحكام عن تفسيرها ؛ فلجأ الفنان الشعبى إلى التفسير الوجدانى والتعويض النفسى من خلال حكايات ألف ليلة وليلة . هذا التفسير الوجدانى للحوادث التاريخية فى حقيقته تعويض نفسى يلجأ إليه الفنان الشعبى لكى يتجاوز الواقع المؤلم بحدوده المكانية وأطره الزمانية صوب اللا محدود زمنا ومكانا ، ليطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض . وسرعان ما يتغلب الخيال على موضوعية الحدث التاريخى بحيث تكون الأحداث الخيالية التعويضية متنفسا حقيقيا لتبديد الحيرة التى يعانيها الناس إزاء ما حدث لهم على مستوى الواقع التاريخى .

والمجتمع البشرى فى حاجة دائمة إلى معرفة تاريخه لكى يظل على اتصال دائم بماضيه : من أجل فهم الحاضر واستشراف آفاق المستقبل . وهذه المعرفة التاريخية لمجتمع ما ليست رهينة بقراءة الكتب التاريخية أو الانتظام فى فصول الدراسة للاستماع إلى دروس التاريخ؛ وإنما تأتى هذه المعرفة التاريخية الاجتماعية من خلال انتقال الأخبار التاريخية شفويا من جيل إلى جيل يليه ممزوجة بكثير من القصص والخيال . ومن خلال حوادث التاريخ التى يتناقلها عامة الناس مشافهة يختارون حدثا تاريخيا أو بطلا تاريخيا ، ليكون محورا لموضوع حكاية يتداولها الفنانون الشعبيون وعامة الناس .

وعلى الرغم من أن التقدم البشرى قد سار قدما فى سبيل القضاء

على السلوك الإنفعالى نحو العقلانية : فإن الحكاية ظلت تحتفظ لنفسها بقيمة كبرى باعتبارها موروثا يغفله الخيال ويتزامن مع موروث واقعى هو حوادث التاريخ المجردة . وإذا كان التاريخ يحمل لنا الواقع ، أو جزءا من هذا الواقع . فإن الحكاية تحمل لنا جانبا غير مادى من هذا الواقع ، وهو جانب الانفعالات النفسية والأمانى العاطفية إزاء حدث ما أو شخصية ما أفرزها التاريخ على أرض الواقع .

والحكاية فى ألف ليلة وليلة تجسد العلاقة بين الحكاية والواقع ، أو بين الفن والتاريخ وهو أمر نلمسه بوضوح فى الحكايات الثلاث التى تدور حول الحروب الصليبية على مدى ما يزيد على مائتى ليلة من الليالى .

أولى هذه الحكايات حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان . وتمتد أحداث هذه الحكاية على مدى مائة وخمس عشرة ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة ، وأول ما نلمسه فى هذه الحكاية سداها الزمنى الطويل . وربما يكن هذا ناجما عن إحساس الفنان الشعبى بالمدى الطويل الذى استغرقته الحروب الصليبية بحيث يتسع أحداث الحكاية على مدى أجيال ثلاثة .

وتبدأ الحكاية فى الليلة الستين بمدينة دمشق ، وتتخذ تاريخا يقع قبل خلافة عبد الملك بن مروان . وقد يبدو هذا غريبا فى ضوء ما نقوله عن أن الحكاية تدور حول الحروب الصليبية ؛ ولكننا حين نتأمل كلمات

البداية فى هذه الحكاية نجد الحدود الزمانية والمكانية لا تعنى شيئا فى بناء الحكاية . « كان .. ملك يقال له النعمان ، كان من الجبابرة الكبار ، قهر الملوك الأكاسرة والقياسرة وكان لا يصطلى له بنار ولا يجاريه أحد فى مضمار ، وإذا غضب يخرج من منخريه لهيب نار ، وكان قد ملك جميع الأقطار ، ونفذ حكمه فى سائر القرى والأمصار .. » وتمضى الحكاية لتجعل عمر النعمان حاكما على مناطق الهند والسند ، والصين واليمن ، والحجاز ، الحبشة ، والسودان والشام ، والروم وديار بكر ، وجزائر البحار « .. وما فى الأرض من مشاهير الأنهار مثل سيحون وجيحون والنيل والفرات . » .

وعلى الرغم من ذلك نجد الحكاية تتحدث بعد قليل عن أن قاعدة ملك النعمان هى مدينة بغداد ؛ وهو ما يشى بحقيقة هامة مؤداها أن الحدود الزمانية والمكانية لا تعنى شيئا عند الفنان أو الفنانين الذين صاغوا أحداث هذه الحكاية . والحقيقة أنه لا عبرة هنا بالأسماء والأماكن والازمنة ؛ لأنها تستخدم كإطار تجميلى للحكاية التى ينبغى أن نهتم بمضمون أحداثها ودلالاتها ..

كان أبطال الجانب الإسلامى فى الحكاية هم الملك عمر النعمان وولداه شركان وضوء المكان ، ثم الجيل الثالث من أحفاد الملك . وعلى الجانب المقابل نجد الأبطال النصارى من الغرب الأوربى . وأهمهم «الصليبى» ملك القسطنطينية الذى تسميه الحكاية « فريدون » وملك

قيساريه (٩) الذى تسميه الحكاية « الملك حردوب » وتبدأ الحكاية بهروب « شركان » الذى اشتهر بشجاعته والمقرب من قلب أبيه حين حملت واحدة من جوارى أبيه فلم يطق أن تنجب لأبيه ولدا يشاركه فى وراثة العرش . وكانت الجارية قد جاءت لأبيه «عمر النعمان» هدية من «حردوب» صاحب قيسارية

وجاء موعد الوضع فوضعت الجارية توأما : ولدا هو « ضوء المكان » وبنتا هى « نزهة الزمان » .

ثم تطورت أحداث الحكاية على نحو يجعل « شركان » يمضى بجيشه صوب مدينة « قسطنطينية الكبرى » وفى الطريق يجد ديراً فيه عدة جوار بينهن واحدة تتقن أساليب القتال وتتحدى شجاعته ومهارته القتالية : ولكنها لا تلبث أن تقع فى غرامه وتتحدى قوات قومها من أجله . وهذه البطلة النصرانية تسميها الحكاية « أبريزة » وقد عادت مع شركان إلى بلاده لتعيش معه فيها ، ثم تكشف الحكاية بعد ذلك عن أنها إبنة صاحب قيساريه . وتتعرض « أبريزة » هذ لمحاولة إغتصاب من عبد أسود . ولكنه حين يفشل فى اغتصابها يقتلها . وحين علم «حردوب» بمصرع أبنته أقسم لينتقم لدمها من الملك النعمان ، وقد تولت الملكة العجوز « شواهى ذات الدواهى » أم الملك حردوب ، مهمة وضع

---

(٩) احتل الصليبيون قيسارية فعلا سنة ١١٠١م بمساعدة أسطول من جنوة في إطار خطة بلدوين الأول لتدعيم مملكة بيت المقدس الصليبية . انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص١٦٧.

خطة الانتقام الماكرة .

تقفز الحكاية بعد ذلك إلى أن جيوش النصارى قد هرعت لنجدة ملك القسطنطينية ضد هجوم الجيش الإسلامي ، وتصف كيف أن الفرنج « .. قد أقبلت من سائر أطرافها كالفرنسيس ، والنمسا ، ودويره وجورنه ، وبندق ، وجنوير وسائر عساكر بنى الأصفر .. » فلما تكاملت العساكر وضاقت بهم الأرض من كثرتهم واستمر تتابع عساكرهم فى الرحيل عشرة أيام .

هذا الجزء من الحكاية يحمل صدى للمعلومات التاريخية المتعلقة بالحملات الصليبية التى جردها الغرب الكاثوليكى ضد العالم العربى الإسلامى ، على الرغم من أن الحكاية تنزل بمستوى السبب إلى الأخذ بثأر إمرأة ، ومن المعلوم أن البابوية زعمت أنها تجرد الحملات الصليبية لنجدة القسطنطينية ونصارى الشرق والأماكن المقدسة ضد الخطر الإسلامى (١٠) كذلك فإن هذا الجزء من الحكاية يجمع فى رواية واحدة صورة للإمدادات الأوربية التى كانت ترسل بصفة مستمرة لمساندة الكيان الصليبى فى الشرق العربى . حقيقة أن أسماء البلاد الأوربية التى وردت محرفة فى هذه الرواية تشير إلى حداثة تدوين النسخة التى اعتمدنا عليها ، ولكنها من ناحية أخرى تكشف عن مشاركة الغرب كله فى الحروب الصليبية بدعوى نجدة الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها

(١٠) انظر ترجمة روايات المؤرخين لخطبة البابا أربان الثاني في كليرمون سنة ١٠٩٥ في : قاسم عبده قاسم الحروب الصليبية - نصوص ووثائق ص ٧٣ - ٨٩ .

القسطنطينية (١١) .

ومن المهم هنا أن نلاحظ أن الخيال الشعبى يجعل للعجوز « ذات الدواهى » دور القائد الأعلى الذى يضع للجيوش الصليبية خطة الحرب ضد المسلمين ، وهو الأمر الذى قد يحمل فى طياته رغبة شعبية لتجريد العدو من أية قدرات عسكرية . وينتقم الخيال الشعبى من أولئك الصليبيين الذين سببوا له كثيرا من الآلام والمعاناة ، وألحقوا بالبلاد والعباد ضررا فادحا ؛ فيسخر من مقدساتهم وطريقتهم فى مباركة الخطة التى وضعتها « شواهى ذات الدواهى » فتصورهم الحكاية بعد أن إتفقوا على خطة الحرب وقد أخذوا يتبركون ببخورهم الذى كان « براز البطريق الكبير ذى الإنكار والنكير » .

لا تهمنا التفاصيل كثيراً ؛ إذ يستمر الصراع طويلا وعلى مدى أجيال ثلاثة ، ولكن الحكاية تصور طريقة حشد الجيوش الإسلامية بصورة تتوافق كثيراً مع ما نعرفه عن طريقة القادة المسلمين فى توجيه الدعوة لبعضهم بعضا لجهاد الفرنج . ففى الليلة الخامسة بعد المائة

(١١) تمدنا المصادر التاريخية العربية والمسيحية الشرقية والاوروبية بأمثلة لا حصر لها عن أفواج القادمين الجدد من أوربا وهجومهم علي المناطق العربية انظر علي سبيل المثال : ابن العديم زبدة الحلب من تاريخ حلب (تحقيق سامي الدهان دمشق ١٩٥١م) جـ٢ص١٧٣ ابن الاثير . الكامل جـ١ص١٣٦ ص١٣٩ ص ١٨١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ - ١٣٧ ص: ١٤١ ص٢٩٧ : ابو شامة الروضتين في أخبار الدولتين ص: ٥١ - ٥٢ ص٨٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني زيوب جـ٢ جـ١ ص ١٤٠ المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك ص٧٥٤ انظر كذلك ما كتبه الرهاوي (RHC, Arm., I,p.90) وكذلك ما كتبه ميخائيل السورياني RHC, Arm., I, pp 327 - 329)

تتحدث الحكاية عن لقاء كل من « شركان » وأخيه غير الشقيق « ضوء المكان » بجيشيهما بعد مقتل أبيهما وعزمهما على قتال الصليبيين . فقد أمر شركان « .. أن يجمعوا العساكر من كل جانب ، وينادوا بالغزو والجهاد ، ثم أقاموا ينتظرون قدوم الجيش من سائر البلاد .. » لكن الأمر الجدير بالملاحظة أن الفنان الشعبى يخلط الأمور فى حكايته بين الواقع من ناحية ، ومعلوماته التاريخية المتوارثة عبر أزمنة سابقة من ناحية أخرى . فالجيوش الإسلامية تتألف من الديلم ورئيسهم رستم ، ومن الترك ورئيسهم بهرمان . صحيح أن الأتراك السلاجقة لعبوا دورا هاما فى الصراع ضد الصليبيين الأوائل (١٢) ولكن الديلم لعبوا دورهم قبل عصر الحروب الصليبية .

وحين تتوجه الجيوش الإسلامية صوب بلاد الروم يفر السكان إلى قسطنطينية حيث يستعد ملكها « أفريدون » للقاء المسلمين . واللافت للنظر هنا أن الحكاية تجعل ملك الروم (البيزنطيين) هو حردوب صاحب قيسارية . أما افريدون صاحب قسطنطينية فهو « .. عماد الملة النصرانية والعبادة الصليبية .. » هذا الخلط يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن الخيال الشعبى لا يهتم كثيراً الفاصيل التاريخية الحقيقية ولا يعبأ بها إلا من حيث خدمتها للصياغة الفنية لحكايته .

---

(١٢) عن دور سلاجقة فارس في التصدي للحملة الصليبية الأولي انظر : سعيد عاشور الحركة الصليبية ، ص١١ . ١٨٨ - ص٢٢٤ ، وعن بعض تفاصيل هذا الدور انظر : قاسم ، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية (دار المعارف ١٩٨٣م) ص٢٠١ ص٢٠٧

وفى سياق الحكاية يبدأ الخيال الشعبى فى التنكيل بأبطال الصليبيين : ففى الليلة الثامنة بعد المائة تصف الحكاية أحد أبطالهم «لوقا بن شملوط» بالعبارات التالية : « .. كان هذا الملعون لوقا ما فى بلاد الروم أعظم منه ، ولا أرمى بالنبال ، ولا أضرب بالسيف ، ولا أطعن بالرمح والنزال ، وكان بشع المنظر ، وجهه وجه حمار ، وصورته صورة قرد ،وطلعته طلعة الرقيب ، وقربه أصعب من فراق الحبيب ، له من الليل ظلمته ، ومن الأبخر نكهته ، ومن القوس قامته ، ومن الكفر سميته . » وهذا منتهى التنكيل والإنتقام الخيالى .

وفى أجزاء أخرى من الحكاية نجد إتهاما بالكفر وتحريف الإنجيل . ومن المثير حقا أن هذه التهم تتوافق مع الأوصاف التى ألصقتها المصادر التاريخية فعلا بالصليبيين : فقد تعاملت المصادر التاريخية مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية كافرة (١٣) ومن الطبيعى تماما أن تتعامل هذه المصادر مع الصليبيين من منطلق عدائى ، وهى فى هذا تعكس المشاعر التى خلفها العدوان الصليبى ، كما أن هذه المشاعر تنعكس فى حكايات ألف ليلة وليلة على نحو مشابه ، حقيقة أن القرآن

---

(١٣) انظر علي سبيل المثال : ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص١٣٢ – ١٣٣ ابن القلانسي ذيل دمشق ص ١٣٥ - ١٤٧ اسامة بن منقذ كتاب الاعتبار صفحات ١٢ ، ٦٤ ، ٨٥ ، ١١٤ ؛ ابن الأثير الكامل جـ١ ص٧١ ، ٧٢ ، ١٥٤ جـ١١ ص١٤ ابو شامة ، الروضتين صفحات ٥٧ ، ٥٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية صفحات ٢٩ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٦٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٠ ، ١٧٤ انظر ايضا قاسم عبده قاسم « صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية » المجلة المصرية للدراسات التاريخية المجلد السابع والعشرون ١٩٨٠م ص ١٠ ص٣٧

الكريم يضع المسيح عليه السلام فى مرتبة سامية ، كما أن على المسلم أن يعترف بنبوة المسيح كجزء من إيمانه بالاسلام ، ولكن تكفير الصليبيين كان تكفيرا ناجما عن عداوتهم .فقد كانت الحروب الصليبية مثل أية حرب أخرى على الرغم من تسريلها برداء الدين . فقد جاء الصليبيون من غربى أوربا ليشنوا حربا عدوانية على دار الاسلام ، وحين وصلت أنباء الحملة إلى العالم العربى « .. قلق الناس لسماعها ، وانزعجوا لاشتهارها .. » على حد تعبير المؤرخ أبى يعلى حمزة ابن القلانسى (١٤) وليس من المعقول أو المنطقى أن يقوم الناس إلى الجهاد ضد هذا الغزو دون أن يعتبروا القائمين به من الكفار ، ونخلص من هذا بنتيجة مؤداها أن تكفير حكايات ألف ليلة وليلة للصليبيين يتوافق مع المشاعر العامة للمعاصرين تماما .

وتشير الحكاية أيضا إلى أن الفرنج كانوا يرفعون الصلبان على قلاع السفن ، ثم تصفهم بصفات قاسية حين يذكر الراوى أن قتلاهم فى إحدى المعارك ضد الصليبين كانوا أكثر من مائة ألف «خنزير » على حد تعبير الحكاية ذاتها .

ويمعن الراوى الشعبى فى التنكيل برموز الصليبيين مرة أخرى ، وهو يحكى ما حدث بعد هزيمتهم ، إذ دخل الملك أفريدون على ملك الروم

---

(١٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٤

وقال له : « ياأيها الملك ما لنا حاجة بدعاء البطريق الكبير ولا برأيه ، بل نعمل برأى ذات الدواهى ، وننظر ما تعمل بخداعها غير المتناهى مع عسكر المسلمين .. » هنا يلجأ الخيال الشعبى إلى الحط من قيمة البطريق الكبير الذى هو رمز الكنيسة التى أمرت بشن الحرب على المسلمين . ولأن المرأة العجوز قد اشتهرت فى الأدب الشعبى بأنها رمز الدهاء والمكيدة ، فقد عزا الراوى الشعبى أى نجاح - ولو جزئيا - للصليبين إلى مكائدها ومكرها .

فقد خرجت ذات الدواهى مع أصحابها وألبستهم زى التجار ، وأخذت من الملك افريدون كتابا يطلب الأمان للتجار « ..لأن التجار عمار البلاد وليسوا من أهل الحرب والفساد .. (١٥) » وقد هددت ذات الدواهى بالقضاء على المسلمين « .. حتى لا يبقى منكم ديّار ، ولا من ينفخ النار ، إلا من يعبد الصليب والزنار .. » هكذا فإن أى أنتصار على المسلمين ليس سببه شجاعة المقاتل الصليبى ، أو حسن سياسة زعمائهم ، فهذه أمور يأبى الخيال الشعبى ببساطة وتلقائية أن يعترف بها . بل أن الحكاية حين تروى أن فارسا واحدا نازل عشرين فارسا من المسلمين

---

(١٥) اهتم الطرفان بتأمين التجارة علي الرغم من الحرب الدائرة بينها . وقد لفت هذا الأمر انتباه الرحالة ابن جبير الذي قال : « واختلاف القوافل من مصر الي دمشق علي بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الي عكا كذلك وتجار النصاري ايضا لا يمنع منهم أحد ولا يعترض وللنصاري علي المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الأمنة علي غاية وتجار النصاري ايضا يؤدون في بلاد المسلمين علي سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب »
رحلة ابن جبير (دار صادر بيروت ١٩٦٤) ص٢٦٠

فأسرهم جميعا فى يوم واحد ، تفاجئنا بأن هذا الفارس لم يكن سوى الفتاة « أبريزة » بطلة الحكاية التى تقع بدورها أسيرة ، ولكن فى حب الأمير « شركان » البطل الاسلامى المغوار .

وعلى الرغم من أن المؤرخين المسلمين يعترفون بشجاعة المقاتل الصليبى ، فإن الخيال الشعبى ينزع هذه الصفة عن جنود أعدائه ، ويمعن فى انتقامه منهم فيجعل صفات الشجاعة والفروسية وقفا على بنات العدو اللاتى يقعن فى غرام الأبطال المسلمين ، وهو موقف تكرر فى حكاية « على نور الدين ومريم الزنارية » كما سنرى .

يقول أسامة بن منقذ عن شجاعة الصليبيين « .. سبحان الخالق البارى ، إذ خبر الإنسان أمور الفرنج سبح لله تعالى وقدسه ، ورأى فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير .. » (١٦) . .هذا الرأى الذى طرحه أسامة يشاركه فيه عدد آخر من المؤرخين المسلمين مثل ابن شداد وأبى شامة وابن القلانسى . وغيرهم (١٧) ، ،ولكن حكايات « ألف ليلة وليلة » التى تدور حول الحروب الصليبية لا تعترف لهم بهذه الشجاعة، أو هى على الأقل تجعلهم فى مستوى أدنى من المسلمين فى هذا المجال.

بيد أن هذا التجاوز عن الحقائق التاريخية لحساب الخيال الفنى لم يمنع بعض الحقائق والتفصيلات التاريخية من الدخول إلى تسيج « حكاية

---

(١٦) اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ص٦٤

(١٧) قاسم عبده قاسم ،«صورة المقاتل الصليبي» ص١٧ - ٢١

الملك النعمان وولديه شركان وضود المكان » فالحكاية تشير إلى التشرذم السياسى فى المنطقة العربية فى الفترة الأولى من عصر الحروب الصليبية ، حينما تتطرق إلى حكاية فرعية بطلها « سليمان شاه » الذى يخوض حروبا ومعارك ضد الأمراء المسلمين بشكل يجعلنا نسترجع صدى المنازعات بين أمراء المسلمين من الأتراك السلاجقة وغيرهم (١٨) ومن المهم أن نشير إلى أن إسم « سليمان شاه » إسم حقيقى لأمير سلجوقى عاش فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى وبضع سنوات بعده ، وتحدث عنه ابن الأثير وعن نشاطه العسكرى والسياسى فى المنطقة بين الموصل وأعالى الشام (١٩) .

كذلك تحمل هذه الحكاية أحداثا فرعية ، بعضها يحمل اتجاهات اجتماعية مثل عزيز وعزيزة التى تدل على الاهتمام بالجنس وبعضها ، يدل على النشاط التجارى ومدى ما كان التجار يتمتعون به من حصانة وحماية نظرا لاهتمام كل المسلمين والصليبيين بالتجارة باعتبارها موردا أساسيا للجانبين (٢٠) فقد ذكرت الحكاية أن « ذات الدواهى » ألبست

---

(١٨) سعيد عاشور، الحركة الصليبية جا ص٤٦٠ - ٤٦٥

(١٩) ابن الأير ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٥٥ هجرية

(٢٠) تشهد المصادر التاريخية علي مدي حرص الجانبين علي استمرار النشاط التجاري ومن ذلك ما ذكره ابن جبير في رحلته ص٢٦٠ وما بعدها . انظر ايضا ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بنى أيوب جـ٢ ص٧٨ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ حيث يورد أخبار اتفاقيات الهدنة بين أبناء صلاح الدين والصلبيين وهي اتفاقيات حرصت علي توفير الاستقرار للتجارة . انظر ايضا المقريزي ، السلوك لمعرفة الملوك جـ٢ ص١١٠ وكذلك محمود الحويري ، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر (دار المعارف ١٩٧٩) ص١٠٤ - ١١١

أصحابها زى التجار لخداع المسلمين، وأخذت لهم كتابا بالأمان من «افريدون» ملك قسطنطينية . (والجدير بالذكر أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تلعب دورا هاما فى تجارة ذلك الزمان بفضل الموقع الاستراتيجى لعاصمتها القسطنطينية ، وكانت أهميتها التجارية من أقوى العوامل التى جعلت الصليبيين يستولون عليها فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م) وتبرر الحكاية خديعة « شواهى ذات الدواهى » بأن « .. التجار عمار البلاد ، وليسوا من أهل الحرب والفساد .. » كما تتحدث الرواية عن الكتان فى عكا ، كذلك أشارت الحكاية إلى بعض التأثيرات الثقافية حين أوردت قصة تعلم « شواهى ذات الدواهى » العلوم الإسلامية ومذاهبها ، لكى تتنكر فى صورة أحد أولياء الله (٢١) .

هذه الاتجاهات مجتمعة تمثل الإطار الكامل للتفاعل الحضارى بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى الكاثوليكى فى غمرة تصادمهما العسكرى فى الحروب الصليبية . ولكن التعبير الشعبى عن هذا التفاعل جاء تلبية لحاجات العقلية الشعبية ، أو العاطفة الشعبية بنزوعها النفسى التعويضى والذى يمكن أن تصفه بأنه نزوع هروبى .

أما الحكاية الثانية من حكايات « ألف ليلة وليلة » التى تدور حول الحروب الصليبية ، فهى حكاية « على نور الدين ومريم

(٢١) اهتم الكثيرون من نبلاء الصليبيين وأمرائهم بتعلم اللغة العربية ودرسوا علوم العرب ، انظر الحويري ، الأوضاع الحضارية ص٢١٩ - ٢٢٢

الزنارية » . وهى حكاية تستمر على مدى سبعين ليلة ، وتبدأ من الليلة الخامسة عشر بعد الثمانمائة ، وتستمر حتى الليلة الرابعة والثمانين بعد الثمانمائة (٢٢)

وعلى الرغم من أن كل حكاية من حكايات « ألف ليلة وليلة » التى نتناولها قد أنشئت فى وقت مختلف عن أوقات إنشاء الحكايات الأخرى، كما أنها تطورت على نحو خاص بها ، فإننا لا يمكن أن نتناول كلا من هذه الحكايات على حدة لأن مصدر استيحائها واحد هو الحروب الصليبية ، كما أن تحليلنا لكل حكاية لا يقصد منه التناول الجزئى بقدر ما يهدف إلى رصد المضامين والدلالات المتشابهة داخل هذه الحكايات جميعا .

على أية حال فإن حكاية « على نور الدين ومريم الزنارية » تبدأ بحكاية فرعية مؤداها أن شابا مليحا هو « على نور الدين » قد أخطأ فى حق نفسه بأن شرب خمراً كثيرا حتى سكر وفقد وعيه بحيث اعتدى على أبيه الذى كان تاجرا كبيرا جليل القدر . وأقسم التاجر ليقطعن يد الإبن .. وهكذا هرب « على نور الدين » لتبدأ الحكاية .

هرب نور الدين إلى ساحل بولاق (٢٣) حيث رأى مركبا تستعد للسفر إلى الإسكندرية فيسافر عليها ، ثم يعثر على أحد معارف أبيه،

(٢٢) طبعة محمد صبيح ، القاهرة بدون تاريخ

(٢٣) كان ساحل بولاق هو ميناء القاهرة علي نهر النيل في ذلك الزمان . وكان لهذا الساحل رصيف كبير تفرغ عليه البضائع - انظر : ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص٢٧ ، ٢٨ العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (مخطوط) جـ٢٥ ورقة ٤١٤ ؛ ابن إياس ، دائع الزهور في وقائع الدهور جـ٤ ص٤١٤ انظر كذلك قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (دار المعترف ١٩٧٨م) ص٧٨ - ٨٨

وهو عطار ، فينزل فى ضيافته ، وبينما هو جالس فى دكان العطار إذا بالعجمى قد أقبل على السوق ، وخلفه على بغلته جارية « .. كأنها فضة نقية ، أو بلطية فى فسقية ، أو غزالة فى برية ، بوجه يخجل الشمس المضية ، وعيون بابلية ، ونهود عاجية ، وأسنان لؤلوية ، وبطن خماصية ، وأعطاف مطوية ، وسيقان كأطراف لية ، كاملة الحسن والجمال ، ورشيقة القد والاعتدال .. » تلك هى « مريم الزنارية » بطلة حكايتنا .

وتقول الحكاية إن مريم هذه كانت بنت ملك « إفرنجة » التى تصفها بأنها « مدينة واسعة الجهات ، كثيرة الصنائع والغرائب والنبات ، تشبه مدينة القسطنطينية » ومن المثير حقا أن الخيال الشعبى يتصور أن الفرنج ينتسبون إلى مدينة إسمها « إفرنجة» ولأن أشهر مدن النصارى ، عند عامة الناس آنذاك هى مدينة القسطنطينية ، فلا بد أن تكون لكل مدينة يريدون إضفاء بعض الأهمية عليها صفات تشابه صفات «قسطنطينية الكبرى» .

أما عن أسباب قدوم « مريم الزنارية » إلى الإسكندرية فتقول الحكاية إنها كانت قد مرضت مرضا شديدا فقطعت على نفسها نذرا إذا عوفيت أن تزور أحد الأديرة فى جزيرة ما فلما عوفيت فعلا ذهبت فى مركب ، ولكن مراكب المسلمين استولت عليه وأسروا من فيه ، ثم باعوا

المركب بحمولته من الناس والبضائع فى مدينة القيروان . وكانت مريم من نصيب تاجر أعجمى اشتراها وجاء بها إلى مصر لكى يبيعها . قد أعطاها هذا التاجر لدلال (٢٤) ولكن الدلال فشل فى بيعها بسبب قلة أدبها . وربما تكون الحكاية قد أرادت أن تدين أخلاق الفرنج وتربيتهم لبناتهم . وفى هذا الصدد ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ما ذكره أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار من ملاحظات واعتراضات على أخلاق الفرنجة ، وسلوكيات المرأة الفرنجية (٢٥) .

وعندما يقف « على نور الدين » ليشارك فى عملية المزايدة على الجارية تقع فى حبه ، ثم يشتريها بألف دينار . وفى الليلة الأولى يعرف أنها « جارية من أولاد الإفرنج » . ثم تبدأ مريم الزنارية فى صناعة الزنانير وتعطيها لعلى نور الدين كى يبيعها فى السوق كل ليلة ، ومن عائد بيع هذه الزنانير يسترد الألف دينار التى دفعها ثمنا لمريم .

ومن المهم أن نلاحظ كيف يتصرف الخيال الشعبى فى أحداث الحكاية

---

(٢٤) مهنة الدلال كانت مهنة مشهورة في أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك وكانت موجودة قبل ذلك أيضا وكانت مهمته ان ينادي علي البضاعة ويتوسط بين البائع والمشتري وله عمولة محدودة - انظر قاسم عبده قاسم ، ودراسات في تاريخ مصر الاجتماعي - عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٨٤ - طبعة ثانية) الفصل الخاص بالأسواق

(٢٥) قال اسامة بن منقذ « وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضي .. وقد اعطي عدة أمثلة علي ذلك - انظر كتاب الاعتبار ص ١٣٥ - ١٣٧

بحيث يجعل بنات ملوك الفرنج تقعن فى حب الرجال من عامة المسلمين، ثم تقاتلن قومهن فى سبيل الحبيب .. ففى الليلة الثامنة والثلاثين بعد الثمانمائة تخبرنا الحكاية من أن « مريم الزنارية » تحذر حبيبها « .. رجل أفرنجى أعورالعين اليمنى ؛ أعرج الرجل الشمال، وهو شيخ أغبر الوجه ، مكلثم اللحية . » هذه الأوصاف الكريهة التى تطلقها الحكاية بسخاء على شخصياتها من الصليبيين تعبر عن كراهية شعبية عميقة تجاه العدو الفرنجى الذى عاث فى الأرض العربية فسادا وإفسادا على مدى قرنين من الزمان جرت خلالهما أحداث الحروب الصليبية ثم استمر يشن غاراته اللصوصية على السفن والشواطىء العربية فى البحر المتوسط طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهذه الحكاية تحمل كثيرا من المواقف التى تتبدى فيه الكراهية الشعبية للعدو الصليبى واضحة جلية .

وعلى الرغم من تحذير « مريم الزنارية » فإن « على نور الدين » يقع فى حبائل هذا الفرنجى . فقد مر على السوق ومعه سبعة من الفرنج وشاهد على نور الدين يضع على كتفيه منديلا فاخرا صنعته له حبيبته على سبيل الهدية . وقد عرف الفرنجى الأعور أن ذلك المنديل من صنع مريم . وبعد وبعد إلحاح وملاحقة يشترى الفرنجى المنديل من على نور الدين بألف دينار . ومن اللافت للنظر هنا أن الحكاية تصف الفرنجى الأعور بعبارة « الفرنجى الملعون عدو الدين » (٢٦) وتنتقم هذه الحكاية

(٢٦)انظر ما سبق ان ذكرناه عن تكفير المصادر التاريخية العربية للشخصية الصليبية .

من الشخصية الصليبية بالشكل الذى يوافق العقلية الشعبية . فالإفرنجى ملعون وعدو الدين ، وهو أيضا دميم الخلقة بشع المنظر، كما أنه يحمل أحط الأخلاقيات ويتحلى بأبشع ضروب الخسة والمكر والخداع فى معاملاته اليومية ، فهو يتحايل حتى يشرب على نور الدين كمية كبيرة من الخمر تفقده الصواب ، وتحت تأثير الخمر يشترى منه مريم الزنارية بعشرة آلاف دينار .

وتكشف لنا الحكاية سر هذا الفرنجى الملعون . فهو أعظم وزراء ملك إفرنجة ، وقد جاء إلى مصر ليتقصى خبر مريم الزنارية إبنة هذا الملك ، وقد عرف الوزير أن الأميرة موجودة حين شاهد المنديل الذى صنعته لعلى نور الدين . وتخفى الوزير فى زى التجار مستغلا حرية التجارة والتجار آنذاك حتى تمكن من شراء مريم بالحيلة من على نور الدين . وينبغى أن نشير إلى أن حرية التجار الأجانب فى النزول إلى موانىء مصر ، ولا سيما ميناء الأسكندرية ، حقيقة تاريخية ثابتة . فقد كان التجار الأجانب يحظون بمعاملة طيبة فى عصر سلاطين المماليك ، وكان لكل جالية من التجار الأوربيين « فندق » ينزل فيه أفرادها ، وكانت هذه الفنادق تضم كل ما يحتاجه الأجنبى من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام (٢٧) ،

(٢٧) كان للبندقية في الاسكندرية فندقان في عصر سلاطين المماليك لسكن التجار البنادقة وراحتهم وقد حصلوا علي هذه الامتيازات منذ العصر الايوبي
انظر HEYD, W., Histoire du Commerce du Levant au moyen ages, (Leipzig,1885,) I,pp.410-412

انظر أيضا جوزيف نسيم ، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي (الاسكندرية ١٩٨٣م) ص٦٣ - ١٢٣حيث يعالج مسألة التجارة وموقف سلاطين المماليك من هذه القضية .

وكان أولئك التجار يفضلون الإقامة فى موانىء البحر المتوسط المصرية مثل الإسكندرية ودمياط ، وكان لكل جالية قنصل يدير شئونها ، ويكون واسطة بين التجار من بنى جنسه والسلطات المملوكية ، وعلى الرغم من أن الوجود الصليبى كان قائما على الأرض العربية فإن السلاطين حرصوا على تشجيع التجار على الحضور إلى مصر (٢٨) وحكاية « على نور الدين ومريم الزنارية » تحمل إشارات واضحة إلى هذه الحقيقة التاريخية عندما تتحدث عن تخفى الوزير الإفرنجى ورفاقه فى زى التجار وتجولهم بحرية فى أسواق الإسكندرية .

على أية حال ، تقول الحكاية أن البطل على نور الدين حين أفاق من سكره ظل يبكى فراق حبيبته ، ولم يستطع على فراقها صبرا فسافر وراءها ، ولكن القراصنة النصارى هاجموا المركب الإسلامى وأخذوه أسيرا ضمن بقية الركاب ، وعرضوا الأسرى على « ملك إفرنجة » وتتطور الأحداث بحيث يهرب على نور الدين بفضل مساعدة حبيبته التى تتنكر فى زى « ريس » إحدى المراكب ، وتقتل عشرة من الملاحين . ومرة أخرى يصل الحبيبان إلى الإسكندرية . ثم يعرف ملك إفرنجة بهروب إبنته مع الأسير المسلم ، فيطارد السفينة بأسطول حتى ميناء الإسكندرية دون أن

---

(٢٨) عقد السلطان بيبرس عدة معاهدات لحماية التجار مع الصليبيين انظر : القلقشندي ، صبح الأعشي جـ١٤ ص٣١ ، ٣٩، ص٤١ ، ٤٢ ، ص٤٢ ، ٤٥ وكذلك عقد السلطان المنصور قلاوون الصالحي هدنة مع الصليبيين في عكا في سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) من أجل حماية التجارة انظر القلقشندي ، صبح الأعشي جـ١٤ ص٥١ ص٦٣

يدري العاشقان . وحين نزل على نور الدين إلى المدينة تاركا مريم فى السفينة ريثما يتدبرا أمره هجم الفرنج على المركب وخطفوها وقفلوا عائدين إلى بلادهم .

هنا يشير الراوى إلى حادثة تحمل ظلا من الحقيقة التاريخية ، فقد عاد نور الدين إلى الشاطىء ليجد جمعا من الناس متجمهرين وهم يصرخون « يامسلمين ما بقى لمدينة الاسكندرية حرمة ، صار الفرنج يدخلونها ويخطفون من فيها ويعودون إلى بلادهم على هينة ، ولا يخرج وراءهم أحد من المسلمين ، ولا من العسكر الغازين » . هذه الحادثة التى أوردتها الحكاية تحمل صدى واضحا للهجوم المفاجىء الذى شنه « بطرس الأول لوزنيان » ملك قبرص الصليبى على مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، بعد أن جمع مساعدات مادية وبشرية كبيرة من بلدان الغرب الأوربى ، ثم انطلقت الحشود الصليبية من رودس . وفى العاشر من أكتوبر من هذه السنة اقتحم الصليبيون المدينة وأهلها مشغولون بصلاة الجمعة (٢٩) وانطلقوا يحرقون المساجد ويدمرون

(٢٩) ألف احد المؤرخين رسالة خاصة عن هذه الواقعة وهو محمد بن قاسم النويري السكندري وأسماها «الإلمام فيما جرت به الإحكام المقضية في واقعة الاسكندرية» . وهي مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية برقم ٩٠٧ وقد قام الدكتور عزيز سوريال عطية بنشرها في سبعة أجزاء - انظر جوزيف نسيم . دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب ص١٥٩ ص ٢١٥. عن هذه الواقعة انظر ايضا : المقريزي السلوك جـ٣ ص٤٢٥ سعيد عاشور الحركة الصليبية جـ٢ ص١٢٢٤ ص١٢٢٥؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر العصور الوسطي(دار المعارف ١٩٧٧م) ص٩١ - ٩٣ .

الخانات والمنازل ، وينهبون ما يصادفهم على مدى ثمانية أيام . وحين عرفوا بإقتراب جيوش مصر هربوا بما سرقوه من بضائع وتحف وأسرى .

وعلى الرغم من أن الخيال الشعبى اختزل هذه الحادثة البشعة إلى مجرد هجوم لاسترداد واحدة من بنات الفرنج ، فلا شك فى أن الدمار الذى حاق بالمدينة قد ترك آثاره السلبية فى وجدان الناس . ونتيجة لعجز الحكام عن تقديم المبرر المقبول لما حدث ، ونتيجة معاناة الناس من الحدث نفسه ، نجد العلاقة بين بعض أحداث حكايات « ألف ليلة وليلة » والحروب الصليبية وذيولها . لا سيما وأن المصادر التاريخية تحدثنا باستمرار عن كثرة اعتداء القراصنة الفرنج على ميناء الإسكندرية فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك ، وإن كانت تلك الأعتداءات فردية وبسيطة ويقابلها هجمات السفن الإسلامية المستمرة على شواطىء أوربا . على أن المعاناة التى نجمت عن حادثة الهجوم المدمر على الإسكندرية ٧٦٧ هـ (١٣٦٥م) وما حاق بها من خراب بسببه ، ربما أنتج نوعا من العجز عن التفسير المنطقى للحدث . وعندما يتصادم هذا العجز مع الرغبة فى تفسيره ، يلجأ الخيال الشعبى إلى التفسير بشكل تعويضى يتوافق مع النفسية الشعبية وما تعانيه أو تتطلع إليه فى أمل .

وقد وجد الخيال الشعبى الحل الذى يناسبه فجعل على نور الدين يسافر مرة أخرى سعيا وراء حبيبته . وهناك يقع أسيرا للمرة الثانية ،

ويروح رجاله ضحية مذبحة ينجو هو منها . ومرة أخرى يلتقى بحبيبته ويهربان . وهنا يبدأ الأنتقام ، فقد جهز الملك جيشا لمطاردة إبنته مريم مع حبيبها المسلم ، ولكنها تتصدى بمفردها لقتال ذلك الجيش . وأثناء القتال يطلب أبوها من أخيها « برطوط » أن يحمل عليها ولا يقتلها حتى يخيرها بين الرجوع إلى المسيحية أو الموت . وحين عرض أخوها عليها هذا العرض رفضت وهى تضحك ساخرة « هيهات أن يعود ما فات، أو يعيش من مات ، بل أجرعك أشد الحسرات وأنا لست براجعة عن دين محمد بن عبد الله الذى عم هداه ، فإنه هو الدين الحق ، فلا أترك الهدى ، ولو سقيت كئوس الردى » ثم هجمت على أخيها وقتلته على الرغم من أنه كان من شجعان الفرنج .

وتمضى الحكاية إلى نهايتها فينهزم الجيش الفرنجى الذى يفر جنوده خوفا من مريم الزنارية . والطريف هنا أن الخيال الشعبى يجعل أباها ، ملك إفرنجة ، يشكو إلى هارون الرشيد لكى يعيد إليه إبنته « ومن المعلوم أن هارون الرشيد عاش قبل عصر الحروب الصليبية بثلاثة قرون على الأقل » وربما تكون هذه إشارة واضحة إلى العلاقة التى كانت بين الخليفة العباسى والملك الفرنجى شارلمان ، وهى علاقة تاريخية حقيقية قامت بين الطرفين على أساس من الود والاحترام المتبادل . وعلى الرغم من أن الحكاية قد أفادت من هذه العلاقة فى سياق حوادثها ، فإن الفنان أو الفنانين ، الذين نسجوا خيوطها غضوا النظر تماما عن السياق

التاريخى ، أو منطق الأحداث فالحكاية لاتلتزم بالزمان أو المكان إطارا لها ، لأن التحقيق التاريخي ليس هدفا ، وإنما تستفيد من بعض التفصيلات والأسماء التاريخية فى نسجها لكى تضفى على الحكاية مصداقية زائفة بغض النظر عن المنطق التاريخى ، ولا غرو ، فالحكاية فى « ألف ليلة وليلة » ليست تاريخا بأى حال .

والعنصر التاريخى فى حكايات « ألف ليلة وليلة » عموما يخدم مضامين الحكاية ودلالاتها أكثر مما يخدم سياقها الذى يبدو كأنه يحدث فى اللازمان واللامكان . وبإستثناء قصة « عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان » - التى يرى بعض الباحثين أن لها مذاقا خاصا بين الليالى لأن العنصر التاريخى يلعب دورا محدودا فى تسيير أحداثها «بسبب تطور حوادثها على مدى أجيال ثلاثة» - نقول إنه باستثناء هذه الحكاية لا نجد أهمية لعنصر الزمن فى أية حكاية أخرى ، إذ أن الحكاية تبدأ فى عصر بعينه ، وفى مكان محدد ، وشخصيات معلومة ثم نكتشف بعد قليل أن هذه الملامح المكانية والزمانية وأسماء الأعلام التاريخية لاتعنى شيئا فى سير الحكاية ، وأننا لو غيرنا كل هذا ما ضر شيئا . والهدف من إضافة الأعلام التاريخية الشهيرة إلى الحكاية هو أن تكتسب وقعا خاصا فى نفوس عامة السامعين الذين يعرفون شخصية مثل هارون الرشيد الذى يحظى بمكانة كبيرة لديهم .

المهم أن الحكاية تجعل الثمن الذى يعرضه « ملك إفرنجة » فى مقابل

مساعدة هارون الرشيد له نصف مدينة « رومة الكبرى .. لتبنوا فيها مساجد للمسلمين ونجعل إليكم خراجها .. » ولكن الخليفة حين يسأل مريم الزنارية تجيبه بقولها : « إني دخلت دينكم لأنه هو الدين القويم الصحيح ، وتركت الكفرة الذين يكذبون على المسيح .. » مرة أخرى يهتم الراوي بإبراز صحة الدين الإسلامي في مواجهة كفر الصليبيين (٣٠) ويجعل الدليل على ذلك كلام مريم إبنة ملك الفرنج التي ينبغي أن تكون أكثر تعصبا من غيرها من عامة بنات الفرنج .

وتنتهي الحكاية برفض هارون الرشيد تسليم مريم الزنارية لأبيها لأنها مسلمة . وهو رمز إلى أن أهم واجبات الحكام المسلمين أن يصونوا أعراض الناس والوطن مهما كان الثمن ، فالحفاظ على مسلمة وصون شرفها أثمن كثيرا من « نصف رومة الكبرى » ومن ثم فإن الحفاظ على شرف الوطن أغلى وأثمن من كل شيء . ويأمر الخليفة بزواج على نور الدين من مريم الزنارية ويرسلهما إلى مصر معززين مكرمين حيث يفرح التاجر أبو على نور الدين بعودة إبنه .

الحكاية الثالثة التي تتعلق بالحروب الصليبية من حكايات « ألف ليلة وليلة » هي « **حكايات الصعيدي وزوجته الفرنجية** » . وتدور أحداثها حول رجل من صعيد مصر زرع مساحة من الأرض بالكتان . وبعد أن جنى المحصول أراد أن يبيع الكتان في مصر ولكنه

(٣٠) انظر ما سبق في هامش ١٣

فشل ونصحه بعض الناس بالذهاب إلى مدينة عكا لكى يبيعه هناك لعله يربح فيه ربحاً كثيرا ، وكانت عكا آنذاك بيد الإفرنج (٣١) . وبالفعل سافر الصعيدى إلى فلسطين بتجارته من الكتان ودخل بها مدينة عكا لبيعها (٣٢) . وهناك جاءته امرأة فرنجية لتشترى منه بعض الكتان وكانت تسير بغير نقاب على عادة نساء الفرنج فى فلسطين . فرأى الصعيدى جمالها باهرا بحيث خلب عقله . وعندما باع لها قدرا من الكتان تساهل معها فى الثمن بسبب جمالها فأخذت الكتان وانصرفت . وعندما رجعت إليه مرة أخرى بعد عدة أيام أشترت منه مقدارا آخر من الكتان وتساهل معها أكثر مما تساهل فى المرة الأولى فكررت مجيئها إليه ، وكانت تأتى دائما فى صحبة عجوز ، فطلب الصعيدى من هذه العجوز أن تمكنه من مضاجعة المرأة الفرنجية الجميلة التى أعجبته فطلبت منه خمسين دينارا فوافق ، ثم انصرف إلى داره التى كانت تطل على البحر وأعد السهرة على سطح الدار لأن الوقت كان صيفا . وعندما جاءت الفرنجية أخذا يأكلان ما لذ وطاب من الطعام والحلوى ، فلما فرغ من الطعام تذكر الله وانتبه ضميره ، تقول الحكاية على لسان

---

(٣١) كانت عكا هي معقل الصليبيين الأخير في فلسطين منذ حملات السلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون التي انتزعت كل ما بقى من مدن صليبية كبرى في بلاد الشام وقد استطاع المصريون بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون فتحها والقضاء على الصليبيين سنة ١٢٩١م.

(٣٢) ذكر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة جـ٦ص٣٥) ان عكا كانت مظنة التجار كذلك فإن ما ذكره ابن جبير (الرحلة ص٢٧٦ - ٢٧٧) من ان عكا كانت قاعدة الفرنج بالشام .. مجتمع السفن والرفاق ربما يكون قد ترك صداه في هذه الحكاية

الصعيدي: « .. وكانت داري مطلة على البحر ، وكان ذلك في زمن الصيف ، ففرشت على سطح الدار ، وجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا ، وجن الليل فصرنا ننظر خيال النجوم في البحر فقلت في نفسي : أما تستحي من الله عز وجل وأنت غريب ، وتحت السماء ، وعلى بحر وتعصى الله تعالى ، وتستوجب عذاب النار ؟ ! اللهم أني أشهدك ، قد عففت عنها »

ولأن المضمون الأخلاقي والدلالة الأخلاقية هي المهمة في الحكاية ، فقد جعلت الحكاية الفتاة الفرنجية تمارس الدعارة على الرغم من أنها زوجة فارس صليبي ، ولكن الصعيدى يأبى أن يمارس معها الجنس على الرغم من إعجابه بجمالها ، وقد غضبت المرأة من هذا الرفض ولم تستطع أن تفهم هذا السلوك . ولتأكيد هذا المضمون نجد الحكاية تكرر هذا الموقف مرة أخرى :

وتهتم الحكاية بإبراز الجانب الأخلاقي والفرق بين المستوى الأخلاقي للمسلمين ومستوى أخلاقيات المستوطنين الصليبيين في بلاد الشام ، فقد كانت الدعارة من أكثر المهن رواجا وتنظيما في الموانيء الصليبية في فلسطين (٣٣) ومنها ميناء عكا التي تدور فيها أحداث الحكاية ، فقد اضطرت البابوية إلى تحذير رجال الدين الصليبيين في عكا من مغبة

(٣٣) JOSHUA PRAWER, The World of The Crusaders (new York, 1972),pp.-91

تأجير منازلهم للعاهرات ، ولكنهم أهملوا هذا التحذير لأن الدعارة كانت تدر عليهم إيجارا عاليا ، يقول جيمس الفيترى الذى زار هذه المناطق فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى : « لا يكاد يوجد بين كل ألف من الفرنج فى الشرق واحد يأخذ زواجه مأخذ الجد ، وهم لا يعتبرون الزنا خطيئة .. والمدينة « عكا » مليئة بالمواخير ، ولأن تأجير المنازل للعاهرات يدر ربحا أكبر فإن الناس - ومنهم رجال الكنيسة ، بل والرهبان - يؤجرون منازلهم فى سائر أنحاء المدينة لممارسة الدعارة (٣٤) »

هذه الكلمات التى صاغها شاهد عيان أوربى زار عكا وغيرها من مناطق الوجود الصليبى فى القرن الثالث عشر تكشف لنا سر ما تحكيه « حكاية الصعيدى وزوجته الفرنجية » .

وتدور الأحداث بحيث نجد المنادي ينادي فجأة : « يامعشر المسلمين : إن الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت ، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين جمعة ليقضوا أشغالهم وينصرفوا إلى بلادهم .. » (٣٥) فانقطعت الفرنجية عنه ، وأخذ الرجل فى تحصيل ثمن الكتان ، وخرج من عكا إلى دمشق وهو مشغول بحب هذه المرأة ، وفى دمشق ربح أموالا كثيرة

---

(٣٤) ibid, p. 91

(٣٥) في هدنة عقدت بين السلطان الظاهر بيبرس وملكة بيروت الفرنجية بتارخ الخميس ٦ رمضان سنة ٦٦٧ - (١٢٦٩م) نص يقول « ...وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوما ولا يمنع أحد منهم من العودة الي مستقره ... » (القلقشندي صبح الأعشي جـ١٤ ص٣٩ ص٤٢) ومن الواضح أن الحكاية تشير الي الإجراء الذي يضمن حماية التجار من كل المعاهدات بين المسلمين والصليبيين .

فاشتغل بتجارة السبى ، ومضت ثلاث سنوات وهو بهذه الحال ، ثم جرت أحداث جعلت السلطان « المنصور » يفتح بلاد الساحل ويأسر جميع ملوك الإفرنج ، وجاء رجل يشترى من الصعيدى جارية حسناء للسلطان وأشتراها بمائة دينار ولكن رسول السلطان لم يدفع سوى تسعين لأن الخزانة خاوية بسبب إنفاق الأموال كلها فى حرب الإفرنج ، ولذلك أمر السلطان بأن يختار الصعيدى واحدة من سبى الفرنج لقاء الدنانير الباقية ، فوجد المرأة التى هام بها حبا ، وتعلن المرأة الفرنجية إسلامها لأن هذه المصادفة خير دليل على صحة دينه ، فقد وهبها الله له فى الحلال بعد أن عف عنها فى الحرام .

وهنا نجد الحكاية تحمل المزيد من الإشارات التاريخية المحرفة فتحرير عكا يتم على يد السلطان الذى تسميه الحكاية « المنصور » وعلى الرغم من أن صلاح الدين الأيوبى قد حرر عكا من الأسر الصليبى لأول مرة ، فإن قوات الحملة الصليبية قد أعادت الإستيلاء عليها ولم تحررها سوى سنة ١٢٩١م على يد الأشرف خليل بن قلاون ، والسلطان الذى حرر عكا نهائيا هو « الأشرف » وليس المنصور ، فهل خلطت الحكاية بين المنصور قلاون الذى كان قد أعد جيشا بالفعل لتحرير عكا ووافاه الأجل قبل سير الجيش ، وبين ابنه الأشرف الذى حررها فعلا ؟ أم أن لفظ « المنصور » يمكن أن يكون دلالة على النصر الذى أحرزه المسلمون بعد نهاية الصراع الطويل المضنى ضد الصليبيين ؟

تنتهى « حكاية الصعيدى وزوجته الفرنجية » بعقد قرانهما على يد القاضى « ابن شداد » وهو شخصية تاريخية حقيقية ، عاصر صلاح الدين الأيوبى وعمل فى خدمته ، وكتب سيرته التى تحمل عنوان « المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية (٣٦) » وربما يكون استخدام الراوى لاسمه هنا ذا دلالة ما ، وربما يكون الأمر مجرد ترصيع للحكاية بأسماء تاريخية معروفة لإضفاء طابع المصداقية عليها .

ومرة أخرى تشير الحكاية إلى أهمية التجارة وحريتها فى زمن الحروب الصليبية ، وتركز هذه المرة على مدينة عكا التى كانت مركزا تجاريا هاما ، بل كانت أهم موانىء الكيان الصليبى على البحر المتوسط آنذاك .

هذه هى الحكايات الثلاث التى تحمل بعض تأثيرات الحروب الصليبية من بين حكايات « ألف ليلة وليلة » ، والناظر فى هذه الحكايات الثلاث بلياليها التى تزيد على المائتين يجد حقيقة تفرض نفسها عليه ، وهى أن التاريخ الذى كتبه المؤرخون الرسميون للحروب الصليبية قد أغفل - أو كاد - أى دور للشعوب فى مقاومة العدوان الصليبى ، ونسب هذه الإنتصارات إلى الحكام بقدراتهم الفردية . ولأن التاريخ تصنعه الشعوب ويسرقه الحكام فإن الشعوب تعيد صياغة هذا التاريخ من خلال فنونها ،

---

(٣٦) توفي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) وقد نشر كتابه هذا المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٤م

وتختار أبطالها من عامة الناس أو من شخصيات تضع فيها كل ما تريد من صفات ففي الصراع ضد الفرنج في هذه الحكايات لا نسمع عن الشخصيات التاريخية التي قادت الصراع وإنما نجد شخصيات شعبية يقع عليها العبء كله .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن البعد العسكرى والبطولة والبسالة فى البطل الشعبى تتجسد فى « حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان » على حين يتجسد البعد الجنسى فى حكاية « على نور الدين ومريم الزنارية » ، أما البعد الدينى فانه يبدو واضحا فى «حكاية الصعيدى وزوجته الفرنجية» . هذه الأبعاد الثلاثة لشخصية البطل الشعبى نجدها واضحة فى الحكايات الثلاث ، على الرغم من إختلاف موضوعاتها .

ولكن أهم ما تحمله هذه الحكايات هو ذلك الشعور بالكراهية والمرارة التى علقت بالوجدان الشعبى تجاه الفرنج من جراء الحروب الصليبية ، هذه الكراهية والمرارة وجدت متنفسا فى الصفات التى خلعتها الحكايات على شخوصها من أبطال العدو بإمعانها فى النيل منهم ، سواء من حيث المظهر الخارجى ، أو من حيث صفاتهم الأخلاقية ، كما تجلت هذه الكراهية والمرارة فى السخرية من مقدسات الفرنج وزعمائهم الكنسيين واتهامهم بالكفر وتحريف الإنجيل والكذب على المسيح ، لقد استحق الصليبيون عداء العرب والمسلمين عموما عن جدارة بسبب فظائعهم

وعدوانهم المستمر على الأرض العربية ، هذه الكراهية وهذا العداء وجدا مجالا للتعبير والظهور فى أنماط الإنتاج الأدبى والفنى لهذا العصر ، والعصور التى تلته ، وكانت حكايات « ألف ليلة وليلة » أحد هذه المتنفسات .

المحتويات

العدد القادم

مملكة الأقطاب والدراويش

مكتبة الدراسات الشعبية

من يناير ١٩٩٦ الى يناير ١٩٩٧

١ – قصصنا الشعبى	د. فؤاد حسنين على
٢ – يا ليل يا عين	يحيى حقى
٣ – سيد درويش	محمد دواره
٤ – المجذوب	فاروق خورشيد
٥ – فن الحزن	كرم الأبنودى
٦ – المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى	د. نبيلة ابراهيم
٧ – ابداعية الأداء جـ ١	د. محمد حافظ دياب
٨ – ابداعية الأداء جـ ٢	د. محمد حافظ دياب
٩ – أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى	ابراهيم حلمى
١٠ – موال ادهم الشرقاوى	د. يسرى العزب
١١ – الرقص الشعبى فى مصر	سعد الخادم
١٢ – المغازى	د. صلاح فضل
١٣ – بين التاريخ والفولكلور	د. قاسم عبده قاسم

رقم الإيداع ٩٣/١٠٦٦٥

I. S. B. N. : 977-5487 - 04 - 8

التاريخ والفولكلور

يحدد د. قاسم عبده قاسم هدفه منذ البداية، البحث فى الموروثات الشعبية عن تفسير شعبى لحوادث التاريخ، وقال: نبحث عن روح التاريخ لا عن جسده، وأمسك حقا بروح التاريخ فى بعض المصادر الشعبية ولكن بطريقة ساحرة وأضاء خلفية الحس التاريخى فى المخيلة الشعبية وقدم - بعينٍ محايدةٍ - قراءة لبعض المصادر الشعبية والحوليات التاريخية

لكل هذا وغيره نقدم هذا الكتاب الجاد والشيق فى آن.



جنيه

الأمل للطباعة والنشر

